منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
مكتبة كل شيء
منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

منى بشلم

أهداب الخشية

عزفًا على أشواق افتراضية

رواية

مكتبة نوميديا

أهداب الخشية

عزفا على أشواق افتراضية

أهداب الخشية

عزفا على أشواق افتراضية

منى بشلم

منشورات الاختلاف
Editions El-Khtilef

مكتبة كل شيء

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0934-6

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

مكتبة كل شيء
e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

منشورات ضفاف
DIFAFPUBLISHING
هاتف الرياض: 966509337722+
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

هنا.. كما يليق بتواترات غيابك

Mouna Bechlem

مساؤك سعيد يا أنتَ

غدا بحول الله أسافر للعاصمة، سألقاها.. لم تكشف هويتها بعد لكني أحس أنها هي.. وبعد لقائها سأكتب قصتك، وقصتها، سأحاول سماع الحكاية منها وسأكتبكما إلى جوار بعض، ملتحمان دون تماس كأهداب العين.. متجاورة بامتداد طولي، كل رمش مستقل عن الآخر، مع ذلك قد تتلامس دون أن تختلط، وفي التشابك جمالها، وأعلق كل هدب بحرف من الأبجدية؛ إذ تجمع الحروف تتكشف لك العين وصاحبها، وحين ترفع بالقراءة الأهداب واحدا بعد الآخر تكتشف الرؤيا، لتعرف ماذا كانت ترى كل عين وما كان يرى كل راءٍ..

لتنبني مدينتي الروائية مشابهة لمدينتنا الحلم "قسمطينة" بأقواسها المتتالية تقف فتتراءى لك من وراء القوس الأول أقواس ملتحمة دون تماس.

فكر بهندستي أجبني بعد عودتي بإذن الله

سلامي ومحبتي

منى

إلى قسنطينة عشقا.. جرحا.. وهبة ربانية

إلى كلمة انكسرت تشردت أحرفها فما عادت تلفظ

ل

طرقت بابك برهبة تلفها رغبة، انسحب بصري مهابة نظرتك المتعالية، قد يكون غرورك ما سحبني نحو هذا الباب، لكن ما دفع بي من الخلف فأبدا لن أبوح به.

ولجت.. فالعتبات مُرهقة، أهاب الوقوف عليها، لذا قضيت عمري كله على عتبات الحياة، أتسلى بإرهاق صبري، وتحطيم الباقي من وجدٍ سكنني، مذ فتحت العيون على جسورها.. قسمطينة..

ورحلت مدينتي.. ومعها رحل الباقي من.. مني ربما..

وقررتُ أخيرا التنحي عن عتبات أشواقي، والاستقرار بالمتن، فما حللتُ إلا موتاً؛ قتلت فتى يتلهى بسويعات البراءة الأخيرة على امتداد خلته يومها لا منته للطريق السيّار.

نقطة هي الأولى وهي الأخيرة على عمري المؤثث شكا، ترددا، وتجوالا بين منصات العرض الليلي ومنصات حياتي الخاوية.

تمنيت لو أني أسجن، لو تسحب رخصة سياقتي

لو.. لو أنهم فعلوا بي ما شاؤوا.. لكن رجلا يحيا في الظل ظللني.. ذاك كان أبي، رجل لا ظلال، لا آثار، ولا رائحة له، حتى الكلاب الجمركية لا تعثر على وقوفه بمحاذاتها.

لن تتصورَ أن له أو لابنته سجلا إجراميا، نحن عائلة سراب نمر لا نخلف أثرا، ونحل لا نبدل لونا..

كما.. تماما كما لم أبدل شيئا بينك وبينك، مذ الحضور الأول.. لقاء الصدفة المرغمة على التلصص، كشَفتَ أوراقي و..آويتني كما لم يفعل أبي.

أدخلتني هذا البيت الذي ترفعتُ عن عرائه وأفول زينته وتناثر كتبه. وعنك رجلا مددني على فراشه، وفر إلى كرسي يراقب نومي، أو ربما إغماءة كانت.

الليلة عدت لاجئة إلى السرير ذاته تمددتُ، ثم رفعت غطاءه وانكمشت في الزاوية الأنثى منه. أفسحتُ لك مساحة رجولية كافية، علمتُ سلفا أنك لن تتربص بها، أنك ما تزال زوجا افتراضيا لامرأة حلم تشوه وجه أحلامك.

أنك لن تدنو.. أنك أيضا شبيه السراب، مجرد ظل لرجل لا وجود له، لستَ أكثر من خيال يمر سريعا، أسود لا زنة له، لا عيون ولا آذان، ذاك أنت ياسر، أما ما جمعني بك، فـ..

تحضر كوب شاي، تضعه بدقة بين أصابعي دون أن تلامسها.. بنقمة العداء التي اعتدتُ منك تسألني ماذا أفعل في بيتك الساعة، وتزيد غيضي إذ تذكرني أنه وقت راحتك، وأنك رجل منهك لا وقت لديه لمسامرة فتاة مذللة فارة من عرس أخيها.

مع أنك تعرف أنه ليس بالأخ بل إنه ربيب الأب، وكنتَ تعرف أيضا أن الصدر آهة، وأنه لا يملك من الغضب ما يكفي لإحراقك، ورد إهانتك، كما فعلتُ دوما..

الآن فقط عرفت أني كنتُ سيلا من نار عليك، وأنك تتجلى لي وطنا بكل الغضب، بكل الشراسة وبكل الحدة التي لأنياب خوفي.

كانت انكسارةً ما ساقني هذه الليلة والكلمات لا ترافق الانكسارات، لا تشيعها إلى مثواها الأخير.. لا ترمي زهرا ولا ترش ماء على القبر. الكلمات للعمر، لربيع عمر ولى..

– ماذا فعلوا بك لتعودي إلى هذا البيت.. لابد كانوا أفظع منه ومني

لم أناسب الرد.. مجرد فجيعة بين الضلوع لا مسببات لها، مجرد وجع لا جراح وراءه، لا خناجر ولا رصاص على هذه الجثة الهامدة.

يُتمٌ حل بي دون أن أدري، مع أن والديَ على تعاط للحياة. شعرت أني عارية تماما.. أنيَ مسخ لا أشبه أحدا، ولا حتى كنتُ أشبه نفسي في ذلك البيت - الفيلا.. ولا عدت أشبهه مع أني كنت أتباهى بعظمته التي منها أستسقي للغرور؛ وافتضحتُ، تعرت مواضع العفة فإذا هي آثمة.. رُفعتِ الستائر فإذا الجوقة قردة وخنازير، وإذ بي دمعة وحيرة، وشريد لا يعثر على جحر يخفي بين ظلمائه وجهه المشوه

وما كنتُ لأعترف لكَ..

فكل العبارات فراغ ما لم تخدش زجاج فؤادك.

أمام صمتي تقترف الكلام ولا تعتقني سخريتك:

- أعليّ أن أسأل ما الذي لم يفعلوه بكِ، أحضروا مغنيا غيركِ، فوّتوا على عليّة القوم فتنتك.. على السفراء والوزراء، والسيد الرئيس.. هل حضر الرئيس عرس أخيك؟

خاوية الردود، لن أرد إن لم أكن سأقطع لسانك بكلمة واحدة تلزمك عمر الصمت حتى آخر نفس، لن أقولها فهي اليوم لا تقتل.

- متى تنوين مغادرة بيتي؟

- ...

- إن كنتِ باقية فتنحي عن سريري راغب بالنوم أنا

يرتفع صوته إخاله غضب أخيرا:

- على الأقل استحمي لا أطيق فوح النبيذ منك

كلمة واحدة تخدش زجاج قلبي الرفيع، بل إنكَ أسقطته، فأنتصبُ عارية هنا أيضا.

خلتك المأوى فإذا أنت تهتك أستاري. تنحيت على عجل؛ حملت مفاتيح سيارتي، كما لم أحمل جثة قتيلي التي ما تزال عالقة بالذاكرة.. وقصدت العتبة.

عمياء العبرات على العيون، يصطدم العمى بجدار بشري يطوقه، يتدفق اليتم.. ينهمر.. يبرق.. يرعد لينتهي عاصفة جاثمة على الركبتين، حولها جسد أشبه ما يكون بممتص للصدمات.. الرجل الذي جعلتُ منه وطنا في غربة أوطاني، وظلا لأبي الذي لا ظلال له.

انقشع الغيم، أفقت من غيبوبة أخرى بهذا البيت. لي مع هذه الغرفة تاريخ حافل غيابا عن الوعي. وجدته يضمني كطفلة لا كامرأة، ووجدتني ابنة له، مع أني طالما كنتُ تحديا أنثويا صارخا يلامس رجولته ولا يمنحها العرش، أو ربما هو من كان دوما يرفض أن يتوج بها.

لم أكن قد افتتحت البوح حين أغلقه وهو يخبرني أنه سيفتش عن بيت ثان إن هو قرر الزواج بي يوما، لأنه في هذا البيت لم يكن إلا أبا لي.

غرزت في قلبه سخرية اللغة.. لغتي لا غير:

– تتزوجني.. أين.. على الفيس بوك مثلا...

أحلم.. المثقفون يتزوجون من كل أميرات الدنيا، ويسكنون قصور الكريستال.. لكن في أحلامهم فقط.. فاحلم...

ألتفتُ إلى سريره:

– قد أستورد لك سريرا مساحته ثلاثة أضعاف هذا ليسعك أنت وكل أحلامك..

- إلى أن تفعلي استلمي أنت نوبة الحلم عليه، لكن إياك أن تحلمي بـــي، أو بصديقي فلسنا لك.

قد لا تكون.. أو لعلك أبدا لن تكون أكثر من الحلم، لكـــن هو..

ذلك الذي شرعت أقرأ تفاصيله رواية خيانة، كتلك الروايات المتناثرات على أرصفة هذه الغرفة، هو ما عاد يُشَكّل من حـــروف العشق إنه "شيء" لا يشبهني..

أنتَ.. وحدك أنت كنتَ صرخة بين الضلوع، كيف أرويك أو كيف يمكن أن أكتمك، فكل ما مضى مر سريعا قبل أن أنتبـــه لـــه، وأنت بيدك كنت تخط حروفا ليست لك، تلك حروفي.. بل حروف الحياة التي أعيش؛ إنها عبارة مقتضبة لا تشبه عبـــارات روائياتـــك المطنبات.. هي حياتي.. وأنت رسمتها مذ رأيتك للمرة الأولى تلـــك المرة التي تلازمني مرارة لا ينسحب سهمها من بين فقراتي.

ياسر.. مفارقة بارعة بين اسم تحمله وطبع سكبت فيه. أتدري لو سألتني إحدى الروايات عنك لاكتفيت بلقائنا الأخـــير لتعـــرف الروايات أنك أعتى من الكلمات وأقسى من القدر، أنك وجع دون هوية محددة.

مع أنك لست أرفع مما خلتك دوما "السائق الخاص بـــي" الذي سار بـــي إلى الشاطئ آخر أيام الصيف بل ومفتتح الخريـــف، علـــى الصخر وقفنا جنبا يواجه جنبا، وملامح العيون شبه غائبـــة، أطلعـــني على هوية لم أسأل عنها يوما، قال أنه أيضا قسنطيني، أتعي قســـمطينة ما معنى أن يكون قسنطينيا، إنه بشكل شرعي أكثر مما يجب ند لي، ند أشبعته حد التخمة هوانا، الند انتقم حين بدا أن عليه الحنو.. تراهـــا رعونة شباب أم أنها حسابات بدقة السياسي لا أخطاء بها.

كنتُ سأبادره حروفا شاردات، تطارد ظلاله، أنا التي لا ظلال لي.. ظللني، إطو عمري وضعه تحت أجنحتك..

لم يغادر الحرف الشفاه نحو إصغائك الغائب مذ وصلنا، بل سبقني بوحه.. خبرني أنه إليك قسمطينة.. يعود، أنه يودعني أنا.. أنا التي لم يمر فتى من بين الرموش إلا تعثر من العمر عمرا، وتاه من التيه جله..

إليكِ يعود.. تراها لعنتك أم أنه القدر.. أم..

بكل بساطة هو ياسر.. يقول أنه بكِ موظف و...

قاطعته ارحل أمرك لا يهم سأجد ألف ألف سائق غيرك

قاطعت قصته على عطش قاتل غص به الحلق حتى كاد يزهق الروح شوقا لكلمات أخر.. ولو لحروف أخر.

تكشف السر الذي لم أستقص يوما، لسبب من النفس متمكن، كان يسميه ياسر غروري السفيه. لم أسأله يوما من هو، ومن يكون، ولا حتى حاولت أن أنبش جذور لكنته القسنطينية الفاضحة.

حوله تلتف الأسئلة الحيارى، ومعه تسافر غدا، قبل أن أرفع النقاب الداكن عنها، عن عشق متصوف يحياه حلما.. بل وهما، لامرأة تزوجت من آخر، وخلفته رفات رجل لرفات امرأة، هي تحديدا أنا.. لم يسعه عشق غيرها.. أنثاه الحلم تلك.

أما أنا فما كانت تحل لي الفرحة وقد حرمت غيري منها، بل حرمته الحياة، وأطفأت كل نور وكل إحساس رقيق لعائلة قتيلي.

كان علينا أن لا نبدأ.. البدء عصي علينا، ثنائي إلى مواعيد مؤجلة.. معلقة على الاستحالة، غير أني ما خلتك ترحل قبل البدء خلت القدر يمنحني عمرا من الانتظار...

لم أدرك أن لا القدر ولا العمر ينتظران، وها أنت راحل..

تعود إلى مدينتي: "سلم على قسمطينة "هذا كل الذي وسعت الشفاه من اللغة، من كامل مفردات اللغة، فأنت كنت تسميها هكذا مفردات..

قاموسك انتقل نحوي بالعدوى المشوبة بالاحتقار، لشدة ما كنتُ أراقب كل كلمة تلفظها لأسخر منها دون أن أدري كنتُ أحفظها، وإذ بي أكررها كما لو أني أكررك، لم يكن ممكنا أن أقول أنها لغة جميلة فأنت لا يمكن أن تشبه الجمال، إنك شيء.. بل مرتبة دونه، رغم وسامتك القسمطينية الملتهبة، دون المستوى دوما أنت..

ك

دفقة غامرة كحظ الحياة، عبارة واحدة من عشق لافح.. أخرق لا نهايات له، رشفة غابرة من زجاجة عطر.. أدنو منها بكامل الرجولة التي أهبتْ، إذ عطرها نبيد..

هذه أنتِ

تقاسيمك تهاجم الذاكرة سريعا، إنك.. المغنية، تلك المغنية أنتِ

وجهك أعرفه، وحمرة الخمرة على شفتيك، فستانك أيضا أعرفه، ما افتقدته فعلا الحكمة من عثوري عليك منتصف ليلي.

الليل آنستي لا ينقضي بين بصري وبصيرتي

ما الذي ألقاك على تلك النقطة حيث ينشطر فصين من ظلام لا ينتهيان، مغشيا عليك، مرمية على مقود سيارتك.. وأي حكمة كنتُ لأسوقك إلى سريري، وأحرم نفسي هناء إغماض عين البصر، وعيون الذاكرة للحظة هي بطعم الموت.. عندها تقف الآلام جميعا.

عطرك آنستي فاض أغرق الذاكرة.. أنعشها مع أنها لم تذبل بعد.. أفسحني مساحات شاسعات من ذكرى.. ذكرى لعطور امرأة أخرى،

امتلكت الكلمات لتقول شبابـــي بحرف واحد اقتلع الفـــؤاد، وأرداني عاشقا هائما بين ثرثارتها الافتراضية، والكلمات المستعارة من شويعرات رقميات، وصور بألوان دافئات تدرجها إذ تحس بعض فتوري فتعيـــد كيَّ قلبـــي بلهفة الجسد، وما كنت أقوى على الفرار من إدمانهـــا.. كلماتها تثور وتتمرد، وصورها تختلف وتتلاون، وكنتُ.. أنا كنـــتُ أركض بكل قوتي لأضبطها.

لأموت عشقا.. بينها وبينها

طال سفر الأمنيات نحوها، وما أرهق الجسد، كانت امرأة حلما

ربما كانت منذ البدء ذكرى وما أسعف البصر البصيرة

أحببتها آنستي.. أنا أحببتها حتى أبعد نقـــاط الـــنفس. أحببتـــها وكلماتها قالت دوما أنها تحب حبـــي لها

أتملكين حكمة كافية لمسح هذه المساحة من العاطفة، وتمشـــيطها حتى أغور مواطن الحقيقة فيها.

ما كنتُ أنفق حكمتي عليها.. شغفي بها أبقاني تملا على امتـــداد العمر الافتراضي الذي لفنا.. وظلماءٌ ذاك العمر آنستي.. حتى وهـــي نوره.

الضياء لم يمتد لأبعد من عيوني، فلم أر منه قبسا، والحب لم يمتـــد إلى أبعد من فؤادي، جاوره، فاض من حوله فأغرقني.. وكانت تبتسم وتقول أنها تحب حبـــي لها

ثم..

تعثرت بك بين دفات عمرٍ مطوية مكتومة شبه آفلة، على رصيف أشبه ما يكون بالعمر، بصمت العمر، مغشيا عليك، منكفئة على مقود سيارتك، وعائدا إلى نفسي كنت بعد هيام بأزقة القصبة العاصمية، كل القصبات تتشابه، تماما كما تشابهنا لحظتها

ما كنا الرغبة كأي رجل وامرأة على عتبات الشباب.. بل كنا رهبة خالصة، خوفا من الأنا، أو خوفا من الآخر.. أو ربما خوفا من الغيب

خفت فيك ذاكرتي فذكر النساء يرهبها

نساء ذاكرتي ما كن ليلا أحمر، بل وجدا وولها

إلى أن انتهى العمر إليها، فأسكنته الخشية، واستطالت الخشية فحالت بين جسدي وجسدك.

بين الذراع والصدر كومتك وعلى فراش احتقرَته تقاسيمك مددتك، وانزويت أتوجس منك الخيفة.. من وجهك الذي قابلت قبل سنتين.. ذات غمامة سوداء فاحمة مرت على العمر فأغرقته. كنتُ أغادر تلك التي لا تغادر الروح، حين أوقفتِ سيارتك، بينما أغادر موقف السيارات الجامعي، و لم أنتبه إلى أن الخطوات لا تبرحك، تعلقت نزولك قمرا أو صاعقة أو مجرد امرأة ككل النساء، امرأة لا تشبه نساء هذا الحرم، فيض أريجك عم الموقف، وارتفع التسونامي فأغرق الجامعة كاملة. كنتِ الأولى.. والوحيدة التي ترمي بالحرير على مقاطع متناثرات من جسدها، فيتطاير يغوص فيه الحرم بكامله، يعبقه أنوثة.

رأيتك تحملين العود و تمرين، لا ترين من الدرب خطوة ولا للواقفين حظوة

يومها سألتُ من أنت..

يومها.. سخروا قالوا أنك القسنطينية العلم

واليوم يسخر القدر.. وأنا من يقول أنك قسنطينة.. قسنطينة أنت بكل ما هي

ذرية كان اسمك ودوريا كانوا ينادونك، والأنين بين النفس والنفس رددتك، قلتِ يوما أن لا تكسر المرأة إلا امرأة، وكسرتِها

تلك الحبيبة السراب، أخرجتِها من الذاكرة بل وحتى من الفـــؤاد.. لكن ذرية

ما عاد مهما كل الذي كان، وليته يوما ما كان

ليتي ما لمحت ذلك القدوم، الذي حرك كل الذي كنت أســـعى لترسيبه هنا.. بالنفس

كل هذه اللوعة والشوق لدفء الأنثى، بجسد رجل لم يعرف عن النساء أكثر مما تعترف به بطلات الروايات

من أمري لم أملك شيئا، سرت اتبع تدريبات فرقة جلها رجـــال اصطفوا خلف ظهرك، تنثرين عليهم رذاذ صوتك الذي لم يبلغني منـــه شيء. جاءتني إحداهن تحمل بطاقاتك الخاصة، تنثرك بشكل ما علـــى صفحات نفسي، تروي عن جمعيتك الموسيقية، ثم تـــدعو لي رئـــيس الجمعية..

رجل سقتِه من المشرق جئتِ به لتجعلي منه واجهة براقة لتـــراث لم يكفك، فرصعته بهذا الرجل الأنيق اللهجة، ما بالهم كل فنانينا، أمـــا أشبعوا شهوات الأمر والنهي من نفسك.

دوريا، أعضاء جمعيتك التفوا حول وقوف دهشـــتي وانبـــهاري يعددون نجاحاتك وأوسمة علقت بفنك، وتراهن دهشتي أنهـــا أوسمـــة لجسد يصنع بصمت حضوره أعنف زلزال.

تربتُ يد المشرقي على كتفي يقول لا تطل التأرجح، فهي جسر بلا طرفين، من قطعه لن ينتهي إلى غاية أبدا

تبادلنا أرقام الهواتف، وأفاقت الغفلة على الفرار منك، فإذ أنـــا لا أنتهي إلا إليك، تقعين صدفة.. صدفة أخرى بين صفحاتي وأنا أتقاطع ومدير النشاط الثقافي بالجامعة بينما أرسم خطوة للفرار منك، فإذ هـــو يعيدني يقبض علي متلبسا بك، يسوقني دون أن يدرك إليـــك مقيـــدا،

وهو يحسب أنه يهديني مسلكا لإتمام بحثي، فإذ أنت بين صفحات البحث خيط دخان يلوثها ويؤجل مسيرها نحو التمام.

ببالغ من كبرياء تدنين منه كأنك تتصدقين عليه بتلك اللحظات، تسلمين بلهجتك القسنطينية المنغلقة دون العالم بأسره، وكأنك من سلالة أنصاف الآلهة، تراقبين لهجته وتفضحين ما استتر خلفها؛ إنه وافد على مدينة لا تمنح كراسيها إلا للوافدين، هي مثلك تماما. ترقبين عبارات يسوقها للتعريف بي، تهوي نظرتك كأنما وقعت منك لا أكثر، فإذ لهجتي تكبحها، تراقبين تدفق كلمات هي أنا

تمدين يدا تصافحين يدي التي تعض علي أناملك بشراسةِ ما ألهبتِ من أشواق.. وما كنتِ صافحته هو.

امرأةً لا تتقن من ألعاب الحياة أكثر من اللامبالاة.. هكذا قرأتك يومها

ولا تلعبها أمامي بل ترحب بي في جمعيتها، تتنازل عن عرشها وتخبّرني أنها لا تغلق أبوابها صيفا بل تستقبل عينات خاصة جدا.

حتى وهي تقتنيك زبونا خاصا جدا لا تدفع لك، ولا حتى بمجرد ابتسامة قد تكون عربونا.. قد تصبح سلسلةً.. قيداً، تشدك خلفها نحو الجمعية بالعاصمة

بمجرد كلمات تلقي بها على عجل، متقاربات كنشرة أخبار خاصة.. خاصة بها، تحرك فيك الحقد الذي لم تكتشف بنفسك قبلا، قبل أن تحرك.. رجولتك.. أو ربما من خلاله تحركها.

لم تكف الكلمات بيني وبيني عن شتمها والثناء عليها دون أن أميز أيهما كان الأقوى، اتخذت قراري أبدا لن أدوس جمعيتها حتى لو زلزلت الأرض وسارت هي إلي، وأبدا لن أعود إلى حفلها، بالأساس هو لا يخصني إنه لنساء يحتفلن بعيدهن، لن أحشر نفسي بينهن.

لكنك لن تتذكري كل هذا، ستنسين سريعا أن أصابعي عضت على يدك الرقيقة، فأفاق نبضك، أو ربما مات حتى أجل آخر.. حتى يوم رحيلي، أجلست إليك بعد شهر من ارتشاف مراراتك، أتأمل احتماءك بسريري الذي تحتقرين، إلى غرفة هي كامل البيت في هذا البيت.

ذرية.. أتراني الوطن، أم أني جسر آخر من جسورك نحو الذات الأخرى التي للكِ، ترى متى تتجلى أشتاقها، تلك التي ستكسرني بين نفسي ونفسك كما كسرتِ الذاكرة ومحوتِ أسطرا عشتُ أقتات عليها عمراً

- دوريا هيا احملي دمعك وارحلي
- لم لا تحمل روائياتك السافرات وترحل.. سأدفع لك أجرة الفندق

أحملُ بقايا رجل كنته يوما أنثرها على شوارع العاصمة، إنها لا تشبهني، ولا حتى تشبهك جاؤوا بك إليها قسرا وستهربين قبل أن يتمكنوا من إخضاع شهوة التحبر فيك. أي رجل قد يكبح انطلاقتها، وأي رجل قد يكسر جبروتً جُبلت عليه هذه الأنوثة الدافقة صخرا لا يتفجر منه الماء

أستعيدك لحظات من مرارة، أجترها وأحاول أن أنسى

أركن سير العمر عند الشاطئ، أستعيد نفسي فيك امرأةً اكتسحت الذاكرة.. سكنتها رغما عني وعنها، دوريا كم عمرا يكفيني لأمحوك، كم امرأة أحتاج لأكسرك بالذاكرة

م

تفلتني أحضانه الأبوية، تعطل عداواتنا المتأججة كل تواطئ محتمل لجسدين سكنا البيت ذاته شهرا من العمر.. أعود إلى خواء سريره، يعود لطردي.. وأبادله الطرد فيحمل بعضا مني ويرحل.

ما ترك لي غير سواد هذه القطعة النابضة بضياء حبه.. متى صرت أشتهي منازل الفقراء، بل متى قد تشتهيني إغفاءة تثمل النفس وتحفظها عن بعض ما يمزقها.

هذا الرجل زرعها ريبة وانتظارا لأجلٍ لا مواعيد له، لعمر انقضى تشرد بين دماء شاب أرديته ذات ليل بهيمي قتيلا.. وشاب أفقت من غفوة الموت فوجدتني أموت بين شراشف فراش لا آثار للرجولة عليه، فراش يشبهني أكثر مما يمكن أن تشبهني غرفتي.

ياسر أجول بالغرفة الخاوية منه التي أبدا لن يجف عبق حضوره وحظوته فيها، أتفقدني بين أشيائه، كم ثمينة بكل الزهد الذي يزيفها، هي سطوة رجل أعتى من الحياة، رجل يرصف روايات لروائيات فاجرات على أرصفة عمره لا يدرك أنه يقتنيها بشبابه، وأنه يدفع العمر ثمنا لروائيات لسن أهلا له، أي أنوثة هذه التي تدس شهوتها بين صفحات من لغة، أي حماقة تستتر بالاسم الجليل "الأدب"، مفارقة بشساعة جرف قسمطيني هذه التي تفصل الأدب عن الأدب، أين قد يجد هذان الطرفان جسرا كالقنطرة أو سيدي راشد ليربطهما، أخشى ما أخشى أن ينزلق ياسر إلى أسفل الجرف قبل أن يرى شدة انحداره.

ياسر أقلب رواياته، أنا اقتنيت لها عمود رخام ذات ضربة شفقة في صيف عاصمي لا يشبه صيف قسمطينة، كم كان للصيف من معنى فيك، كم أمسية، كم بسمة، دفنتها جميعا مع جثة شاب

أسكنته مبكرا جدا القبر.. وما كان بعمر القبور، كان عمره زهورا وإن كانت رمادية مغبرة...

حملت رواياته رصفتها على سريره، قلبت صفحات من اعترافات نساء يسردن سفورهن، وخياناتهن الزوجية على مسامعه، ويحملهن إلى فراشه ينمن بين ذراعيه، ويطردني إلى بيت والدي وهو يعرف أن لا وطن لي خارج هذا البيت.

ياسر قصة الانتماء هذه لم تضع لها نقطة منطلق.. ياسر إنها نزيف أبدي..

وعائد أنت إليها غدا ستنسيك اسمي ونزفي، وكل الذي أنا عليه.. تلك الحبيبة الأزلية.. قسمطينة

وقد يضيعها فؤادك وتعاودك نساء الماضي فنسقط كلتانا في غفلة زمن النسيان..

الكل ينسى ذرية فلمَ لا تنسين أنت.. رماد جسدٍ ما يزال عالقا على كل نقطة من الروح.. من الجسد.. من.. مني

هروبا من مواجعي أفتح جهاز الكمبيوتر خاصته، أتفقد كتاباته، ماذا كتب عن روائياته، يقابلني عنوان بالأحمر ضحكت من لونه، متى صار هذا الرجل أحمقا، أقرأ "كتاب لامرأة لا تقرأ" شيء ما فيه يشبهني، أقتحم الأسطر الأولى:

"إلى كلمة انكسرت تشردت أحرفها فما عادت تلفظ"

أفتش عن الكتاب بين الروايات المتناثرات لا أعثر عليه.. ربما حمل الكتاب بالسيارة سأسلبه الكتاب، شيء منه يشبهني، ربما قداسة كلمة الكتاب، كان الكتاب قدسيا ثم تدحرج نحو الجرف رفقة كل المقدسات، رفقة مؤلفي الكتب أولئك الذين كتبوا بدمائهم وبالروح منهم، وأُطفئ نورهم عنوة، فخُلفت المكتبات

للعرايا والمزايدين، فتركنا لهم تجارهم، ما عاد الكتاب قداسة ولا حتى مجرد عادة.

ياسر واحد منهم، خطأه أنه يقف في الجهة المقابلة، يدفع ويقبضون..

متى يدرك أنها حماقة.. لا شيء أكثر من حماقات، كيف يمكن لرجل نحت من الصخر القسمطيني أن يكون بهذه السذاجة.

أغلق أرشيفه، وأفتح النت.. لا أفتش عن أكثر من ألعاب قد تهشم ضجري فإذ بحسابه على الفيسبوك يفتح تلقائيا، يقابلني منشور صديقة مقربة.. إلى جوار اسمها نجمة ذهبية، كانت ترثي نفسها

Mouna Bechlem

«وإذ يستفتيك القدر في صبري، قل إني جحيم على قلبه منطبق
وأني حين أستعر يأكل بعضي بعضا..
وأني في ذروة اللهب لا ألفح أحدا
وأني الموت حال تشرد تيهه بين الذكرى والذاكرة
ضاعت منه المسارات
وأخطأه.. ذاك القدر»

أتأمل ردود أصدقائها.. جيش من الحمقى.. أحدهم قال الله يستر، الآخر قال هل يخطئ القدر أختي د. منى... أغبياء، ما هكذا يقرأ الموت، كدت أخبرها عن ميتتي الفريدة، لكنها باغتتني برسالة تسأل عن حالي.. أقصد عن حاله، سارعتُ مغلقة الصفحة، وقلبي يرتجف.. تبا لك أيتها الكائن الافتراضي جعلتني أرتجف فزعا.

أغلق صفحاته.. لغته.. وعشيقاته الافتراضيات، وأعود إلى خلوته مع القلم، أقصد مع الحرف.. فلم يعد القلم أداة الكتابة، أجول ببصري على سطح المكتب ألتقيها ثانية.. هي عشيقة إفتراضية إذن "منى بشلم" أفتح يقابلني رثاؤه غيابها عن شاشته:

«في رواية أولى قالت الأنا لغيابك الافتراضي:

ها أنا كما لم تعرفيني يوما..

متاهة صغيرة على حواف صمتك

سيجارة تجهد نفسها لإخراج حرائق الفؤاد

وفناجين قهوة تتقمص دور النبيذ فلا تجيد

ها أنا.. في المنطقة الوسطى ما بين فجيعة فقدك.. وفجيعة تلبس الحرف بك

هكذا تأتي المواجع عزيزتي.. مفتوحة على كل احتمالات التمزق والفرقة، هكذا كما سطرها بُعدك.. أو ربما طيفك الذي يسكن روحي، ولا أعرف كيف تسلل، أالغياب قذفه في دمي أم أنك منذ البدء كنت تسرين بأوردتي، وطيش الشباب أعمى بصري وبصيرتي، فما رأيتك وأنت تحتلين تجاويف القلب القصية، تلك التي أطفأتْ نورها امرأة غيرك وخلفتني بقايا رزايا، وشظايا عشق معلق على الخشية، خشية لم تلبسها تلك الأنثى، ولا حتى آمنت بها، هي فقط ارتدتها قناعا، لدورها المقيت في مسرحية بطلها الميت كان الحب..

وكنت شهيدا مغتالا بيد ميت.. توقفي.. لا تبتسمي، لا أحب ابتسامتك، توترينني وتقطعين خيط أفكاري، تعرفين أن الكتابة ليست حرفتي، أنا فقط أغتال الوقت في غيابك.. للوقت في غيابك طعم الدفلة.. هل تذكرين قصة شواء الدفلة..

إنها برهان غبائي الأول، بريء هو من يعاشر غير قومـــه، أو.. غبـــي بختم رسمي.

الدفلة كانت بدايتي الأولى للتدريس خارج العاصمة، العاصمة تشبه قسنطينة في أمر واحد؛ أن كلتاهما تحتفظ بقلبها بعيدا عنها إلى أن يتوفاه البعاد، تستعيده جثة هامدة تعود وتـــزرع رمادهـــا بـــين الدخلاء.

أخرجت من عاصمتنا وزرعت بأرياف قصية، باغتني العيـــد، وليرفع عني شباب القرية وحشة غربتي رتبوا عيدي بمعرفتهم، ولم أك يومها أهلا لذبح أو سلخ، فكفوني كل ذا وأرسلوني أجلب أعـــوادا نشوي عليها الكبد، وجلبت حبيبتي، عفوا أقصد زمـــيلتي، جلبـــت أعوادا من شجيرة أزهارها فاتنة التورد.. غير أن شواءها كان أمرَّ ما قد تتذوقين.

يومها عزيزتي.. يومها عرفت الدفلة.. الزهرة الفاتنة الجمـــال، يومها خدعتني الدفلة، وهمس القدر أنها ستخدعني طويلا.. وأن دفلة كثيرة ستخدعني من بعد.

الدفلة.. أنثى العشق والمرارة، ما رأيك هل يمكن جعله عنوانـــا لرواية ما، يوما ما، يوم تقررين سحب طيفك من أوردتي، والذوبان فيها أنت، بكل أنوثتك، تبا لك.. زميلتي، وألف تب لأنوثتك التي.. لم تنبض بالقلب إلا في غيابك.

لن تكون روايتك.. لن تكون إلا روايتها هي؛ فهـــي الدفلـــة الأولى في حياتي.. قبلك أو بعدك.. أقصد.. لا أعرف فأنا لم أفق على فجيعة حبك إلا في بُعدك.. أما هي فكانت هنا، الأنثى الـــتي تســـتر الجسد لتأجج الرغبة، الأنثى التي عثـــرتُ عليهـــا علـــى صـــفحة الفتراضية، تكني عن هويتها ولا تبوح، تقول أنهـــا "ســـيدة العشـــق

والكبرياء" وترمز لوجهها بغواية الابتسام، صورتها الرمزية كانت لـ تشرليز تيرن ممثلة فاتنة الابتسامة، هي أنثى تبتسم بكل خلايا محياها، حتى تغرق النظرة في بهجة التقاسيم. أكان للكبرياء ابتسامتها الساحرة.. لا أظن ما كان الكبرياء ليبتسم، لكن وجوده مجرد ذكره كان كافيا جدا لاستعبادي، وطبعا.. زميلتي طبعا أرسلت إليها لهفتي المغلفة بنفاق الفيس بوك "طلب صداقة"

أمام معلوماتي الدقيقة طالب جامعي

قسنطيني، مقيم بالعاصمة

أعزب

أعزب نقي تماما من طفح الأنوثة، لم يسبق وأن لطخت بعطر أو توسدت لهدا.. هي ما ملكت الرفض، بل وكما تفعل الأنوثة دوما، استعجلت نسج خيوطها بوهن النفاق الافتراضي شاكرة لطف إضافتي، واستهجنت لفظتها "لطف" إثارة للكبرياء، أو إن شئت صدق الفحولة استهجاني كان اختبارا للكبرياء، لم تكن أنثى كانت قطعا قطنية ملطخة ببعض الـ.. لا أدري ستعرفين بعدها.. سأخبرك عنها أكثر، حين تقريرين العودة قد أخبرك، لكن لا تكتبي عنها جوار قصتي ودوريا »

ستكتب عني.. كلفتها بالكتابة عني، سافل.. غبي، سترى، سأريك كيف تروي عني لعشيقاتك الافتراضيات..

«اجعليها فصلا مختلفا، أو أكتبيها في رواية مستقلة واسميها الدفلة، حسنا ستجدين تعبيرا ما يتضمن هذه النبتة التي صنعت مراراتي جميعها، رغم فتنة لونها الزهري، فاتن لونها كلون شفتي سيدة الكبرياء أيهما – يجب أن يشبّه بالآخر لا أدري – شفتاها رقيقتان لا تغريان بالقُبل شفتاك أجمل، ستحذفين هذا الاعتراف أنا واثق،...»

تتمنى قبلاتها.. ياسر وتمنيت قبلة واحدة منك تعلن ميلادي.. تبا

«حسنا احذفي كما تشائين، لكن أصغي إلي، كنت دوما تصغين لي، تضعين وجنتيك بين راحتيك، وتلقين بنظراتك الطفلية علي أسرد أو أثرثر، ليتك تعرفين حاجتي للثرثرة معك، الافتراض أو الفيس بوك تحديدا جعلني أدرك حاجتي للثرثرة.. كنت تقولين أنها فن عظيم، وكنت أسخر لكني الآن أفهمك، وأعرف معنى أن تفضي لأحد ما بكل شيء..

هي جربت معي ذلك أو مارسته علي، كانت تغلق باب غرفتها وتفتح صفحات الافتراض تعلق على حائط الفيس وردة أو أغنية أو كلمة سرقتها للتو من شاعرة رقمية وتنتظر ضغطي على أيقونة الإعجاب لترسل تحية وشكرا "للمرور العطر" بعباراتها المكررة حد الملل، لكن بمجرد الرد عليها "بلطف" كما تصفني دوما ينفجر سيل اللغة، لغتها الخاصة التي تجدل خبث الأنوثة بضعف لا أعرف إن كان دلالا أو حاجة إلي، تجعلني دون أن تقول من ذلك شيئا أشعر أنها بحاجة لي، ثم وبمجرد انغماسي بملاطفتها ودعم تصدعات نفسها، تكشف سفور الأنوثة، مرة بعد مرة، بدأت بإرسال صورها، ثم بريدها الإلكتروني، ثم رقم هاتفها ليتسلل صوتها إلى تجاويف روحي، يصنع لي تاريخا أنا الخاوي متجمد النبض، جعلت نبضي يتراقص على نغمات صوتها، وخلقت بالروح عطشا لا ارتواء بعده، أعادت ترتيب مواقيتي لتناسب خلواتها.. خلوة أتجرد لها من كل ثيابي وأتدثر بظلماء بيت خصص بالكامل لمعاشرة صوتها الخافت خشية أن تكتشف أمها أو عائلتها ما تأتيه في خلوتها.. بعد منتصف الليل.

صديقتي.. لقد منحت لشبابي معنى..

ليفيض المعنى وتضيق كل العبارات وهي تنشئ حسابا على سكايب.. تضاعفت الجرعة، جرعة إدمان امرأة بالكاد تكتشف أنوثتها، تجرب اكتشاف تأثيرها على فتى لم يعرف من النساء غير... ما تعرفين، وأدمنت.. الجسد، الصوت.. الحياة مع امرأة ملكتها افتراضا، من بعد شاهق، جن له شوقي ولهفتي، وتوجعت رجولتي... بجوعها المكبوت الذي لم تفرجه ساعات طوال من المعاشرة الـ.. كيف سأسميها.. الإفتراضية، لم تكن افتراضية فكل شيء كان حقيقيا مع أن كل شيء كان وهميا. جسدها.. أنوثتها، كلماتها.. ثرثرتها، الثرثرة فن عظيم، يعلق القلب ويذيب الجسد، كل الواجبات يتم تأجيلها، الدراسة الكتب، عشق الكتب المجنون امحى. هي فقط هي من وراء شاشتي الصغيرة... تصعد جنون لحظاتي، وتنفخ روح الرجولة الماجنة في براءة شبابي، كانت.. تنتصب كل شرايين وأنا أرقب جسدها يتكشف قطعة بعد قطعة.. وأغرق بي.. برجولتي، بوجع رجولة تفيق شرسة فلا تلتهم غير ذاتها.. ثم..

قررنا أن نلتقي..

أين يمكن أن يلتقي كائنان من وهم، كان سؤالي العسير، لا يجب دخول الجامعة مع حلم يسير على قدمين، حلم مشين بشكل ما، مبهج بالشكل الآخر، تلك كانت حيرتي، أما هي فحلولها جاهزة دائما، اقترحت ملهى ليليا لم أعرفه قبلا، أنا المقيم بالعاصمة منذ سنوات أربع، لم أعترض فأنا أكتشف معها الحياة بكل متعها، وكل خطوة ما هي إلا خطوة في قلب اللذة، مغامرة نحو المتعة الفريدة لأنوثة ملتهبة أكتشفها بنهم من لم يذق قبلا...

وصلت العنوان المفترض، انتظرت رنة تدلني عليها.. لم تأت.. أججت أشواقي.. جن الليل الذي سكن قلبي، لحظات.. ثم

جاءت.. الأنثى التي أحرقت جسدي لذة، الأنثى التي كانت صورة سافرة على شاشة وتنهيدة بسماعة جهازي وهاتفي، تقف أمامي جسدا مغلفا بجلباب أسود، حجب عني نبض الاشتهاء...

ستسألين عني..

أنا.. لا شيء.. لم أحس شيئا، وجهها لم يكن بجمال صورته على الشاشة، الشاشة لم توضح التفاصيل الدقيقة عليه، آثار حب الشباب، سمرة شمس أحرقت بشرتها، لحم صلب كجسد محارب قديم، لم تخترق ذوقي لكنها أثارت رغم خيبة العين شهوة الذاكرة، فكت المكبوت من رجولتي التي كدتُ أضيع وأنا أمارس عشقي افتراضيا، احتضنتها جسدا، ضغطتها بقوة لتلامس كل نقطة من جسدي تشبعها.. تملؤ الفراغات المهولة التي خلقت بي، قاومتْ.. قاومتْ.. استسلمتْ.. ارتجفتْ..

وأنا أفلتها قرأت غضبا ما.. على وجهها، غضب مرهف، ربما قناع غضب لا غير، أبعدتني عن ملهاها الليلي، سرنا خطوات أحاول الالتصاق بها وتبعدني.. وبعدها

بعدها.. صديقتي صعقت حواسي وهي تخبرني أن ما فعلت حرام، تصوري قالت حرام، لم أفعل غير ما كانت تمنيني وتعدني، اعترضتْ.. شددت أني ما كنت ألمسها، قالت اللمس حرام. التعري لم يكن حراما، لكن أن أمسها فهذا حرام لا يحل إلا بزواج.. رجت كلماتها ذاكرتي أعادتني لآخر كلمات أبي.. أبي الإمام الذي مزق صوته الآفاق داعيا للتصويت للإسلاميين، وانتخب شعبنا الإسلاميين وقامت قيامة البلاد فاختاروا الدم سبيلا لاستعادة كراسيهم المسلوبة، فكان أبي أول من قتل، قبل أن ينفذوا حكمهم راسلوه، جمعنا لخطبة وداعه، تخيلي مني ماذا

قال أبـــي، قال اتقوا الله في والـــدتكم في أنفســـكم وفي بنـــات الناس..

أوصاني بها قبل اغتياله، وعزفتْ حبيبتي الافتراضية على نـــزفي يا منى..

ماذا قلتُ، بما كنت أرد.. لا أدري لا يمكنني تذكر شيء سوى جوعي والوحش الذي تأجج جنونه نيرانا لا شيء يطفئهـــا، قبلتـــها عنوة.. أو ربما تظاهرتْ فقط بأني أجبرها، أو ربما لم أنجح في تقبيلها.. لا أدري لم أملك صحوة كافية لأعي.. لم أفق إلا وهـــي تـــدفعني، وتسرع لأخذ سيارة أجرة و.. تختفي

اختفت لأيام لا ترد على هاتف ولا على اتصـــالاتي المتكـــررة بالسكايب ولا قبضت عليها بالفيس بوك..

بائس.. هذه هي الكلمة المناسبة.. تحولت إلى بائس لم يبـــق لي غير الخروج لصحبـــي، أغتال مرارة الوقت في غيابها

خبرت سامي عنها، رويت ورويت وما ارتويت قـــال عـــرفني عليها أعلمك فنون الرجولة وكيف تخضع امرأة.. أين هي لأعرفك عليها.. رد صمتي وبؤسي.

برنة هاتف عادت.. عادت تعلمني حدود الدين، وأين يجـــب أن نقف وتخبرني أني لن ألمسها إلا وهي تدخل بيتي سيدة له، كيف أتزوجها وأنا الشريد الهارب من الموت إلى بيت من غرفة ومطبخ بحجـــم علبـــة سردين، أشتاق أمي لا أقدر حتى على زيارتها، وقد هربتني.. أمي هربتني من قسنطينة لأتم دراستي الجامعية بُعيد الموت الذي تربع علـــى قلوبنـــا واغتال أنفاسنا وهو يغتال والدي، لا أعرف حتى مـــن أنهـــى عمـــره برصاصة خاطفة، رصاصة استمرت تحفر قلوبنا وتجدد نـــزفها مع كـــل نفسٍ، وكل شيء يتحول إلى عبء ثقيل، حتى اقتناء الخبز صار مشكلة

عائلية عويصة، لثلاث مراهقين تعودوا على ايجاد كل شيء جاهز رهن دلالهم.. كيف أتزوجك أنا الفار إلى حريتك من سواد أيامي، وخيبات شبابـــي، هارب إلى حيوية جسدك من صمت الموت

فقط.. زميلتي.. هذا فقط.. وانتهينا إلى الصمت، طبعا لم أقـــل لها شيئا من كل هذا، صمتنا، طلبتُ أن نلتقي في مكان عـــام رفقـــة أصدقائي وصديقاتي، أقصد أصحابـــي وحبيباتهم، والتيقتها مكسور الخيبة، مهزوم الرغبات، آفل النبض، ورآها سامي برعونة رجولـــة تتحدى لتفوز، لم يحصل شيء في حضوري، غير أني أدركت ســـريعا أن جمالها المتواضع جدا لم يفشل في اشعال الشـــرارة بقلبـــه، تلـــك الشرارة التي انطفأت أو كادت بقلبـــي.

ارتخت علاقتنا وهنت، والتهبت جراحي.. كل الجـــراح الـــتي كانت هامدة، مستلقية بهدوء مرير في مكان ما من الروح، ما عدت أملك ردودا لكلامها للخشية والرهبة التي تـــزرع بقلبـــــي مـــن الخالق.. من الحرام من.. من كل شيء.

تركت بالصدر آهات لا أقدر على تنفيسها لأجدك تحررينـــها على صفحتك الافتراضية تحررين كل أوجاعي بلغتك، لغة تتلـــوى بعذاباتك، كنت لحظة وجع، أو لغة وجع، أول ما صـــادفت كـــان تعليق أحد الأصدقاء على إدراجك الفيسبوكي:

Mouna Bechlem

مَرة مُرة أخرى الكتابة للغياب تسعد الشجن

أنا.. وطيفك، والأتي من عمر ما عاد يتقن افتقادك

نحترق بك.. نسخة عن الوطن

صفحات الطفولة تلتبس بدماء أزهقها الوطن.. بعض الوطن
ما أزال أذكر.. أو ربما
ما أزال لا أتقن غير التذكر
والكتابة لك.. أو له.. للوطن.. أو ربما للبياض..
ربما لأنه يلتبس بالقلب

كأنما كتبتها لي، لي وحدي.. لطفولتي التي استفاقت فجأة بكل أوجاعها، في لحظة حرمان، لحظة جوع عرت الوحش الذي بداخلي، الوحش الذي كان يمكن أن أكون، ولسبب لا أعرفه لم أكنه، أرسلت دهشتي مغلفة بلباقة الفيس بوك "طلب صداقة" وافقت سريعا، اسرع مما تخيلت، طبعا فمعلوماتي تغري، هل أغرتك كلمة أعزب، أغرتني قسنطينة التي رصعت بها صفحتك.. خيط الحنين الناري لف قلبي..

اشتقها لكني لا أستطيع العودة.. لن أوجع ذاكرتي.

تأملت صفحتك، آهاتها المتناثرة، الآهات لا تصدر إلا من قبل قلب باحث عن النور، أناقة لغتك جعلتني أدرك سريعا أني أمام شاعرة رقمية، قد تكونين فعلا شويعرة، أو ربما سارقة صغيرة لأفصل في أمرك وضعتك على قائمة الأصدقاء المقربين، هنا يمكنني مراقبة كل حركاتك لأعرف من أين تأتين بآهاتك التي تنفس صدري، لكن أين الرغبة وأين الإدمان الذي كان، ما عدت أهتم للافتراض ونسائه الزائفات، نسيت أمرك سريعا بمجرد أغلاق الصفحة، لم أعد إليه إلا بعد أسبوع، وجدتك مشطت صفحتي صورة صورة، إدراجا إدراجا، ورصعت الجميع باعجابك وتحت صورة مكتوب عليها *أحتاج لشخص يسمع كل ما بداخلي ولما أنتهي يقول لي إن تركك الجميع أنا لن أتركك*" علقت: وبعدها ينتهي ما بداخلك فتصير أجوف ورسمتِ ابتسامة بلهاء

جعلتني أدرك أن أناقة لغتك الرقمية تخفي بذرات جنون مـــا، وأنك توجهين لي الدعوة لاكتشافك، لم أدخل الدردشة كانت مـــا تزال منكفئة على نفسها توهمك بأني غير موجود، دخلت صفحتك سرا، أتلصص على أوجاعك، موت، فراق، وحدة، وجـــع، شـــوق شاهق لحبيب بعيد، حبيب افتراضي إذن آنستي هذا الذي تكتـــوين ببعده، وتنفسين حرائقك بآهات وآهات متســـاوقات.. لكنـــهم.. أصدقاؤك أقصد، جيش أصدقائك لم يتركوا كلمة إلا قالوها لـــك، أخبروك أنك جميلة، أخبروك أن لغتك ساحرة، وأن انتقاءك للصـــور راق رقيق مثلك ومناسب.. جدّ مناسب لنصوصك، فماذا تريـــدين مني.. صغيرتي.

كم حبيبا لك، أكلهم عشاقك.. تبا كيف تتصرفين مع هـــذا الكم من الكلمات.. عجيبة أنت تغرين بالاكتشـــاف لابـــد أنـــك محترفة.. ماذا تريدين مني أنا البائس العائد من لوعة مبتدئة أقع بـــين يديك يا صاحبة جيش من المدافعين الشرسين عنـــك، جـــيش مـــن العشاق، لن أجد حتى الوقت لأحدثتك، قبل أن أغلق صفحة اليأس الفيسبوكي منك أرسلت إدراجا جديدا:

Mouna Bechlem

لا تكتمل طقوس الاحتراق إلا بحضورك والمطر
جمرة على عتبات الوريد.. وأخرى لخلوة القلم
وأخر دون أن يحتجن لعوني يصطففن على أسوار القلب
لعنة النار الإغريقية.. في حضرة المطر
ومواعيد معدة سلفا لنحيب الصمت

و

قطرات قلم إلى جوار شهوة البوح

تستفزني.. هكذا قلت لنفسي، علقت مقتبسا عبارتك لا غير: ومواعيد معدة سلفا لنحيب الصمت.. شهوة البوح. خلتك لن تعلقي على اقتباسي، وتنشغلين بالرد على عشاقك، وما أمطروك به من عناية، لكنك حددت اسمي في الرد وكتبت لي عبارة تافهة حفرت قلبي: "هي لك" ثم حجبت النص، أرسلت لك من خانة الدردشة:

سقطت تاؤك

عفوا

هيت لك

لغتي وشفقتي لا غير، ويبدو أنك لا تستحقها

حادة صارمة، امرأة تعرف ما تريد، لكنها لا تعرف كيف تصل لما تريد.. هكذا قرأتك، اعتذرت منك، مدركا أن اعتذاري لن ينفعني، كان يلزمني اشهار سلاحك.. وحدها اللغة تبقيك، واستبقيتك لم تقومي بحضري، بل خطفت إعجابك، وعرفت قبل البدء أني أشعلت شرارة ما بقلبك لا أعرف حتى اليوم شرارة ماذا كانت، المهم أنها تلك الصلة التي لا يكسرها شيء، بنيت في لحظة دون رؤيا العين حتى.

أنا يوم رأيتك كنت ممتنا بشكل جعلني أرى فيك جمال الكون كله، لم تهمني أناقتك المصطنعة، ولا كل الألوان التي أجهدت لإخفاء حزن وتعب تقاسيمك. كان يكفيني أنك سعيت لإعادتي لمدينتي وتحملت لأجلي كل الذي تحملت.. كل الذي لا أعرف حتى اليوم.

وتم تحويلي من العاصمة إلى قسنطينة، عدت لأمي، لـذاكرتي.. عدت إليك بشكل ما.. صرت زميلك بالمدرسة العليا للأساتذة مـع أنك قلت أن بوسعك السعي لإدخالي الجامعة لكني فضلت زمالتـك وما همني غيرها.

وها أنت تختفين وتخلفين بالقلب حرقة شوق إليـك، لا أعـرف أفقدت فيك الحبيبة التي توهمت أم الصديقة أم فقدت فيـك انتشـاء فرحي بوجود من يأبه لوجودي، وأوجاعي.. ما علاقتي بك زميلتي.. أنا بصدق لا أعرف إن كانت تلك الشرارة نبضت بحبك، أم أننا....»

أسمع خطواته تقترب أغلق الصفحة أسارع نحوها مـن قائمـة الـ word حتى لا يكتشف تطفلي، أعتدل وأنا.. أجتـر كلماتـه، حب، صداقة، زمالة..

الأحمق لا يعرف أنها مجرد عشيقة افتراضية...

يفتح الباب عائدا بعد..

لا أدري أين كان. تسألني إيماءاته المغادرة، أما لغـة العيـون فتستبقيني، بل وترجوني الشروع بوضع نهاية رومانسية لفصل لم يبدأ بعد.

شرع يرتب الكتب داخل حقيبته، ويعيد ثيابه لحقيبة أخـرى باقتصاد فائق للمسافات والأبعاد لا تقوى عليه حتى النساء.

لا تنفرج لغته الروائية على أكثر من بياضات ممتدة حتى حدود النهايات، وسكنتُ بينها فسكنَتْ كل كلمة، ولم أقو على أكثر مـن التطلع نحو غروب القلب الذي قد يمتد عمرا، قد لا يكون غروبا قد يكون الأفول ولم يسعف البصر البصيرة..

اختفى ضياء شمسي لكن حرّها لم يفارقني بل أوقع تشققا بحجم واد بين تضاريس النفس حتى لكادت تقطع الأنفـاس، أحسسـت

اختناقا، حاولت إخراج زفرة أو مجرد تنهيدة فلم أعثر على مخـــارج قد تفصلني عن نفسي لحظات.

أنا احتجبت دون الحب عمرا مخافة لحظة تشقق الحب، فإذ هو على غفلة من حيطتي يكتسحني يجرّني حتى قعر الوادي ثم يجـــف، ثم يشّقق.. ليتصدع فيصبح جرفا بانحدارك يا وادي قسمطينة.. تـــراه واديكِ أيضا بقايا حب آفل قسمطينة.

أفتش داخل حقيبة يدي عن مفتاح الشقة، أسحبه من أعمـــاق النفس فيمزق خروجه روحي، أقدمه على أطراف الأصابع لياسر يمد أصابعا أيضا.. يلتقفه يعود يسكنه راحة يدي ويجمع شمل الأصـــابع لتغلفه، مفتاح يشغل آلافا من مخابر الكيميـــاء داخلـــي أنـــــزف صخرا.. أنحت منه المرأة، فأبعث أنثى أدنو منه بكامل الجسد الـــذي طالما اقمه بالفتنة، تفتش شفاهي عن بداية لنبض أزهقته حيرتي، فإذا هو نهاية عاجلة لحب لم يكن يوما.. خطوته الوحيدة للـــوراء تبتـــر بداياتي التي جفت الروح انتظارا لها..

ليتني ملكت أمري.. بالصراحة المطلقة ليتني ملكـــت الأمـــر كله.. أكان عصيا هذا الرجل، أم أني كنت أقل من الأنوثـــة، مـــن حبيبات ذاكرته.. من عشيقاته الافتراضيات، لأيهما قد تخلـــص يـــا رجلا أقل من الرجولة..

تا

كم عمرا يلزم لمحو امرأة من بين أسطر العمر..

وكم عمرا آخر يلزم الرجل ليمحوك أنـــت دون كـــل النســـاء ذرية..

ربما ليس أكثر من هبوط اضطراري على أرض النسيان..

ألقي بك دون مروحية خاصة من أعلى أول جـــرف قســـنطيني يقابلني

وأد حداثي جدا لمشاعر لقيطة لا يمكن أن تخلق لها هوية في زمن لا هوية فيه للقلوب، واستئصال عاجل لاستفحالك المريـــر داخلـــي.. آنستي

تتسابق خطوات العودة إلى بيتي الذي تحتلين منذ ليلة أمس، أجمع أغراضي أمام نظراتك المعلقة على كل حركة، على كل كتاب يـــودع حقيبة ليست مطلقا بسعة حقائبها، تدنو مني تعيد إلي مفتـــاح شـــقتي بهدوء لا يشبهها كأن عواصفها انجرفت نحو القعر وأبقتها عارية مـــن ثوراتها، ماذا يمكن أن تصنع هذه المرأة وقد جاءتنا في زمن الثـــورات، أيمكن أن تصنع لنا الوطن الحلم.. لكن كيف يمنَح الوطن من لم يعثر له على وطن.

من يدري ثمة عاهات تخلق إبداعا وعبقرية؛ ألم يصنع الفنَ أولئك الذين لم يعثروا على أنفسهم، الولايات المتحدة تعزل المصابين بانفصام الشخصية في مشفى فائق الحراسة فإذ بهم يحولونه إلى معرض للفنـــون التشكيلية؛ لوحات لا يمكن أن تسمها إلا بأنها الفن عينـــه بأيـــادي لا تعرف لمن هي تحديدا.

أدنو من سكينتها أعيد إليها بعضا مني تعرف جيدا أنها تملكـــه، هذه الشقة بعض مني من ذاكرة أجاهد الأيام للإبقاء على نقائها، ها أنا أمنحها إياها طواعية أستشعر سعادتها؛ الكهرباء التي عبرت جســـدها فاضت من عيونها لسعتني، انحنت بكامل جسدها لتدنو مـــني، بشـــفاه تقارب الشفافية نقاء، وهذا الجسد الذي أغرقني برجولة غالبت القـــدر لأكتمها شهرا.. شهر كامل وأنا أصارع جسدك المتمنع لأبعده عـــن لهيب شوقي، وها أنت الليلة تقرّبين فتنته مني وقـــد أصـــابته عـــدوى

الشوق، أهو الحب ذرية.. أم أن جسدك اعتاد وجود جسدي قربه والمسافات التي شرعت تتشقق مزقت معها صبر جسدك، فدنت شفاهك ترتشفني.. أو تحاول ارتشافي فقط، فقد فررت سريعا من وجه حلم شرع يتحقق، كأني خفت فيك أحلامي، أو كأن الأحلام مراتب أيضا، وتعرفين حلمي الأكبر..

لم ألامس منك غير خصلات مرهفات علقن بأصابعي التي ارتفعت مُحاولة القبض على حلمي فمثلك أنا لم أملك على النفس سلطانا.. اشتهيت عطرك وفوح الخمرة من شفتيك.. اشتهيت جسدا انتصب طيلة شهر عصيا متمنعا فإذ هو اليوم يدنو مني طواعية، غير أني عدت وسحبت أصابعي المترددة لتباعده.

يهوي رأسك على كتفي للحظات تصدُقين فيها أمام نفسك لا أمامي فحسب.. نادمة أم مفجوعة كنت

أحاول القبض على وهنها، فتباعدني لينكفئ الجسد المؤنث على حافة سرير كان لي صار ملكا له، ولا يبقى للهفة أشواقي غير تأمل وجه تتيه البراءة بين سحر غوايته، تمزقني عبرة تسابق العبارة:

- متى ترحل
- الآن
- سلم على قسمطينة

عبارة واحدة لا تفتأ تتعثر بها كل لحظة "سلم على قسنطينة" لا بل قسمطينة هكذا كما كان يسميها أهلها منذ عقود.. عقود طوال.

ألا تعرف هذه القسنطينية أن تلك المدينة ما عادت تشبه التاريخ، ولا عادت تشبه الحضارة ولا حتى المالوف الذي تغرد به.

تراقب وجلةٍ صمتي، فلا تقدر على قراءته تسألني كيف كانت، وْ كيف خلفتُها، كدت أخبرها أني تركت ملّاك أمرها يرصفون دعائم

حشبية تحت أقواس جسر سيدي راشد فهم يشبهون أميّتك لم يقـــرؤوا التاريخ و لم يعلموا أن الأخشاب لا يمكن أن تدعم الحضارة. لسبب ما لم أفعل لم أقل من ذلك حرفا كذبت ببراءة طفل:

- قسنطينة مازالت تتنفس كل صباح غزلك

"بسم الله نبدا كلامي

قسنطينة هي غرامي

الله الله

نشوفها في منامي

هي والوالدين

الله الله"

التفتت أقرأ صفحة وجهها فإذ صخرها القاسي يتفجر منه مـــاء رقيق، دفقة واحدة تنفلت من الكتمان، تجمدني مكاني.. بكت بكتني.. ربما.. أو.. لا أدري

لكنها بكت، أنثى الصخر العتيق.. بكتـــ - ـــني..

- ياسر كنتُ دائما أساق وأخلفها ورائي جائعة لا تبكـــيني، اليوم هي تغادرني تخلفني منكسرة أبكيها بحرقة.. كـــأني لا أعرف أن نار قسمطينة إغريقية كلما سكبتُ عليها الماء ما زدتها إلا اشتعالا.

أحرقتني نارهما الإغريقية، اشتعلت بين الروح والجسد، التهبت كل تلك الأماني التي رصفتُ عليها الجليد، وجدتني أنا بخطوات غائبة عـــن الوعي أدنو من صمت احتراقها، ليطوقني اللهب، أحرقتني عبـــارة هـــي وقوده الوحيد "سلم على قسمطينة" جمعت كل الجليد الذي ادخـــرتِ الحيطة للفرار من هذه المرأة، طلبت إليها أن تعود إلى معشوقتها أفلتـــتني شتاءً جاء بغير موعد، ما ناسبتُ طقوس موتها، أو مـــا خلتـــه موتهـــا،

ابتسمت والعَبرات تتجاذب عِباراتها.. همست لا تفوت الزخـــات الأولى للمطر شارك قسمطينة أول قطرة ماء تطفئ صيف الصـــخر، ستشـــبه عروسا تغادر للتو حماما عثمانيا متوهجة الفتنة.. لا تفوت فتنة المدينة إنها أكثر إغراء من امرأتك الحلم التي تشوه وجه الأحلام منك.

ماذا قد تقول لامرأة لا تقرأ..

لم تقرأ يوما الشوق واللهفة، ولا هي قرأت أسطرا كتبتها هـــي بنفسها على الجسد

لا أملك إلا أن أقول أمامها كذبا، أعدك أني لن أفوتها، القطـــرة الأولى ستكون لكِ والثانية لقسنطينة، والثالثة أستحم بها وأنسى كـــل نساء الأرض.

لا تعلم هذه المرأة أنها ممحاة الذاكرة، أن عبورها من على العمـــر مسح كل النساء فمن تملك محوها.. هي.

ترتد تسألني متى أعود وقبل أن أجيب تطلب برقـــة لا يمتلكهـــا الصخر العتيق أن أبقى تعدني عملا ينسيني منصبـــي، كرة أخرى قبل أن أجيب تسأل ماذا تعمل.

أكانت تجهل، ألم تعرف يوما من أكون، أنا الذي ركنتُ العمـــر بكل مشاقه وتبعتها، خلفتُ المدينة وأعمال طالب الدكتوراه، ومشاريع بحثي علقتها على النسيان لأجل امرأة لا تذكر لقاءنا الأول، الزلـــزال الذي حطم الزمن وأوقف تدفقه حولي. ما جواب عاصفتِك الثلجيـــة غير الجليد:

- أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة، يربطني بجامعـــة منتـــوري مشروع بحث وآخر للدكتوراه

ابتسمتْ.. لم تنفق على كل الجليد الذي أجهدت اللغـــة لبنائِـــه أكثر من ابتسامة أذابته حتى أحرقتني، و لم أبخسها عدوى الاحتراق:

- أ لا تتذكرين عرفني عليك مدير النشاط الثقافي
- لا...

أنت هو.. أنا.. أنا كنتُ بانتظاره.. لا.. لا يمكن أن تكون هو..

- كنتِ تنتظرينه هو.. لم هو.. أي فرق وجدت بيننا؟

أكانت الحرائق أعتى من اللغة، أم أنها استعادت شرانق الكبراء وفضلت الموت صمتا.

ل

كيف يمكن أن تفر من وجه رجل أزقته أضيق من أن تعثر لك على ذرة أكسجين بها، فإذ بك محشو بين أسوار متاهة هي تحديدا هو.

رجل لا يعرف متى.. أين.. ولا كيف.. يكون رجلا.

أكنتُ بانتظار السراب أم أنك منذ البدء ما كنتَ أكثر من سراب. أتستحيلين سرابا مثله قسمطينة يوما، حلما يمارس السبات على حواف الذاكرة.. ما قد يتبقى من الذاكرة

ياسر.. أسخرية رجل ادعاؤك، أم سخرية قدر أم أنك الرجل الذي يشكل القدر.

تبا للمصادفات جميعا. ولموت يحل على عجل لا يستأذن، ألم يكفيك موت اختطف الأحبة جميعهم، لتصبح موتا من نوع ثالث في المنطقة الوسطى بين الحضور.. الوعي والغياب، هنا تحديدا، فيشكلني مسخا بتشوهات نفسية، حاضرة العقل غائبة الوعي، أنت الذي أسميت تقاسيم البهاء مني تشوهات أخلاقية، ها أنت تحضّر لي تفاصيل أخر وتشوهات لم تعرفها النساء يوما.

يا رجلا لا يملك أن يكون...

أيمكن أن تكون الأستاذ الجامعي، ذلك الذي يشبه قسمطينة حد التطابق، ذلك الوسيم.. رجل يشبه القفز من أعلى جسر بمدينة الجسور، يملؤك هواء أقوى من طاقتك على الاستنشاق يغرقك فتنهزم ميتا طواعية بين ذرات الهواء، تسلمه نفسك طوعا، لا يمكن أن يكون أنت ياسر.. لا يمكن.

ربما علي أن أعترف يوما أنك قليلا.. أحيانا قليلة.. قليلة جدا هزمتني وأني سررت بخسائري أمامك، وأنها وقّعت نشوة أكثر انشراحا من نشوة سيجارة في لحظة سلام نادرة.

لا يكتفي من إيقاع الهزائم بي أسأله عن الكتاب، ذلك الذي خطه صاحبه لامرأة لا تقرأ، اشتهيته، ربما أصابتني عدوى القراءة منك أخشى أن تخلف بي عاهة مستديمة للقراءة، فأنا لا أحب مراقبة روائياتك بينما يخلعن ثيابهن على مهل بين صفحات كتاب.

- لا تخافي لن تصيبك تشوهاتي الثقافية ولا عدوى القراءة فالكتاب لم يؤلف بعد
- جميل هكذا تتكاثف نقاط الشبه... ومتى يؤلف؟
- أحمله إليها هي تكتبه.. هي يمكن أن تقترف كتابته
- هي.. من تحديدا؟
- زميلتي بالمدرسة العليا. هل أبوح عند مسامعك.. أنا فضلت العمل هناك فقط لأكون قريبا منها.. كانت على قائمة النساء اللاتي أستكشفهن قبل الثلاثين، ومرت الثلاثون، وما أزال أحاول ولم تدخل قفصي، قد تسوقها هذه المذكرات إليه قسرا

بعد عشيقات افتراضيات يعود يكشف امرأة أخرى عالقة على الذاكرة، يذكرها الآن وهو يغادرني، لكن معه كل الحق إن كنّ

تخلعن ثيابهن على صفحات الكتب فلم لا يمتع عيونه بسلعة مبتذلة، ثم يقلن أنهن نساء، أي أنوثة هذه، الأنوثة كانت دوما مواربة، فضحها فض لها.

يصيبني عطش رهيب لسماع حكايتها هذه التي صنفها في خانة نساء ما قبل الثلاثين وهوى قراره وانكسر عند شيء ما منها، ما عساه يكون. لا أعرف كيف قد أركب أسئلتي التائهة حتى لا تفتضح الغصة التي بالحلق. يفاجئني ياسر باسترساله محدثا عنها، أي امرأة كانت؟

- شيء واحد أذكرها به ابتسامتها كلما رأتني ابتسمت.. ثم مرت لا تكلف نفسها حتى عناء السؤال عني، لا تنقل إليك غير تقاسيم وجهها البريئة حد السذاجة، بي رغبة دائمة لأن أسألها إن كان التدريس يتعبها؛ لا أخال أحدا من طلبتها يهابها.
- ثم..
- انتهينا أصدقاء ككل العاملين هناك، رغم الماضي الافتراضي الذي كانت فيه سندي
- ألم تقل أنها تكتب أين رواياتها..
- لا ترغب بنشرها ربما أدركت أن كتابة النساء ليست أكثر من تصفية حسابات على بياض الصفحات...

نظر إلي.. ابتسم بل ضحك وأردفني

- أمزح نشرت واحدة لا املكها بعد..

عندها فقط عرفت أي لون أي شكل من النساء يشتهي هذا الرجل، لا ضرر من تصفية حساباته على جسدها، إنه حب القرن؛ ليس أكثر من التفاتة، قبل البدء قبلة..

وقبل أن يتعرف نفسها يستكشف جسدها، ثم ترحل المشاعر كما ترحل المواسم، ويأتي الغد بعاشق جديد ولا تنتهي يوما مواسم هجرة الأجساد نحو الأجساد.

ما خلفته عند سنوات الغربة وجئت فارة منه وجدته بانتظاري هنا.

ما عادت النساء مثل أمي التي هاجرت هي الأخرى وبداية تبرعم أنوثتي وما علمتني كيف أكون أنثى..

أينا ضيعت العمر هباء أنا أم هن.. أينا ضيعت الأنوثة قبل البدء.. أنا أم هن..

ما عادت مهمة أسئلة التيه هذه، فالرجل الذي انتظرته كان إلى جواري أتخمته شتائم، وكشفت كامل أوراقي على طاولته، لاعبته بغباء طفولةٍ لم أعرفها، وشوق امرأة لم أكنها، عشته حبا من زمن الأساطير، وما كنت أكثر من نقطة على قائمة يجلوها متطاولة.

الرجل الذي صنفته في الخانة الخلفية، يأتي كبيدق مهمش من الخط الأخير وبقفزة واحدة يحرق مملكتي، ويشوه وجه حلم رتبت له الأعوام المقبلة من عمر لم يبق منه مثل ما انقضى.. أستذكر واحدا من إدراجاتها الفيسبوكية كنت لمحته ذات تلصص، كانت صورة أصابع تغير موضع بيادق الشطرنج كتبت عليها:

«أ يمكن يا قدر أن نعيد الجولة بيننا

فقد كنت منشغلة بتغيير لون عيوني وتعطير بيادقي

حين تقدم جنديك الصغير واغتال مليكـ - ـة.. قلبـي»

أنا يا حبيبة حبيبي ما كنت منشغلة بتلوين عيوني ولا بتعطير خيباتي، أنا كنت منشغلة بشتم رجلي الحلم، واحتقاره.. أخلفه لك.. ستفوز به لغتك.. تبا

قد نعود ونلتقي ياسر... قد تحمل جسدك إلى مدينتي الـــتي لم أسكن فتتعثر بـــي عند كل خطوة تخطوها، وتعيدك الـــدروب إلي، أخشى أن تعود بعد انقضاء العمر..

ياسر ما أعسرك.. ما أطول قائمة النساء عندك، أنا التي خلتك لا تعرف للرجولة دربا، فإذ أنت شهوة متأججة...

ما بالها لم تبدأ تفتحها عند أبوابـــي.. ولم تشرع تلقن الجســـد حروف فتنته الأولى..

التهبت ذكرى رجل يحمل تضاريس قسمطينة بين تقاسيم الوجه، امتداد جسورها بين خطوط اليد، أسطر تاريخها بين أصوات لهجة منغلقة دون الكون بأسره، إلا القلة الباقية من أبناء قسمطينة آه قسمطينة

"قسمطينة وينوما أماليك

اللي سكنوك راحوا"

كيف لم أفكر.. كيف أمكن ألا أحاول جمع الصورتين، من أين أتيت بكل هذه السذاجة، لكنها الجراح تعمي البصر والبصيرة، هذا الرجل تموضع منذ البدء بين جراح الضمير التي لم أعـــرف قـــبلا.. وأوقعتها بالروح ليلة أتت عادية، ثم انقلبت عدائية، بواحـــد مـــن الملاهي الليلية العائلية، فأبـــي – الرجل الذي لا ظلال له– يحتكـــر صناعة.. أقصد تجارة.. اللهو

كنت رفقته نسترق الاستماع لمغن نقل لنا موظفونا عن تجاوب السكارى والمسطولين معه.. أنه يمتعهم.. ويسحر المسامع، وبمـــا أن الذوق موحد في هذا الوطن لا فرق بين سكران ومثقف وسياسي.. قررنا جعله نجما

فأطفأ اصطياده نجوم ليلتي، وانقلبت ظلماء الليـــل بالخـــارج ظلماء داخلية، وأنا أراقب غوص أبـــي نحو ثمالة لن يفيق بعـــدها،

ركبت فرارا مجنونا، على طريق شبه خال إلا مني ومن سيارة كانت تتعقبني، أدركت أنه أخطأ العنوان، فأنا ما كنت من يخال، أو على الأقل... حسنا.. أنا لست من فتيات الليل

حاولت تجاوزه كان يترنح فتزيغ سيارته القديمة، حاولت.. بكل ما ملكت من خبرة أن نخرج كلانا بأقل الخسائر، فما خسرت أكثر من سيارتي بينما دفع آخر أنفاسه على حافة الطريق.

ركنت.. راقبت انقلاب السيارة وتدحرجها نحو الهاوية بصمت.. خرس الصمت مزقه صراخ حاول أن يقبض على تلك السيارة قبل أن تبلغ النهاية

كل ما ملكته كان الصوت، اجتمعت يداي تحت الصدر كأنهما تطوقاني مخافة دفقة الرعب التي أحاطت بي، وأطلقته بكامل قوته.. صوتي.. فما أمكنه بلوغ تدحرجها، ولا أمكنه القبض عليها، بل ما أمكنه شيء

بلغت السيارة نهاية المنحدر.. احترقت وأحرقته

شاب بربيع العمر

وأحرقت معه ربيع عمري أنا..

انتهى الصراخ إلى النحيب وانتهى البكاء إلى الفرار من.. من شيء واحد أردت الفرار.. من نفسي..

فقط من نفسي.

سيحضر من يخمد نار الفتى ويسحب رماده، لكن من يملك إخماد نار استعرت بالعمر.. بربيع عمري أنا..

وقد قتلت.. أنا قتلت رجلا

رجل كان زهرة من شباب

كان بربيع العمر، أي خطيئة أي كفارة قد ترفع عن كـاهلي جثة احترقت وعلق على القلب رمادها.

لا أعرف متى وصلت إلى ذلك الحي، ركنت عند تلك البناية، لا أعرف حتى أين قرأت ذلك العنوان سارعت قصـدته، ركنـت أمامه، بحرص شديد على حياتي على سلامتي، أنا التي لم أحرص على حياة الفتى وسلامته..

بلى فعلت لم أوفق لكني حاولت..

كان ثملا حد الجنون، سياقته كانت مجنونة، بالأصل نحن شعب يحترف جنون السياقة؛ كنا نحتل رتبة رابعة عالميا ثم بلمح البصر قفزنا نحو الأولى وإمعانا بالتفاخر وضعنا له اسما رومانسيا، لقبناه إرهـاب الطرقات، مع أننا بالأصل لا نمتلك طرقات إن قارنت الطرق عندنا بتعريفها القاموسي لن يشتركا في شيء.

غبت لا أدري كم من الزمن أقمت خارج خرائط الزمن، لكني عدت، فتحت العيون، وما عرفت أين كنت

ب

كانت تريده، وبكل جوارحها انتظرته، ذاك الرجل الـذي هـو تحديدا أنا، هل تفتحت أنوثتها عند مصافحة جريئة من رجل لم تعرفه قبلا، أم أنها خالت صمت انبهاري كبرياء فتعلقت به، تمامـا مثلمـا عشقت كتمانها وكل ذلك الكبرياء المجنون غرورا..

لِم هو.. لِم انتظرته هو، أي فرق بيننا وجدت امرأة لا تحسن القراءة، على أي صفحة عثرت على نقاط افتراقنا، أم أنه تحديـدا جهلها ما أعمى بصرها وبصيرتها فما عثـرت علـى آلاف مـن الصفحات تجمعنا.

خطيئتي أني أقرأ، أني اليوم وبعد كل تلك الأيام عرفت أنها أبـــدا ليست المرأة الحلم وأنها أبدا لن تشبه أحلام الرجال، وأنها لن تكـــون مدينتي مع أني..

أعترف أنها أحيانا كثيرة.. كثيرة جدا تلتبس بك قسنطينة فـــلا أعرف أيكما مدينتي وأي منكما هي حبيبتي، قد تكون المدينة والحبيبة، وقد تكون الخطيئة، لا شيء سوى خطيئة، هذه التي تقيم على شـــاطئ البحر ولا تملك أن تقرأ تقاسيمها على وجهه، هي لن تعرف يوما أنها صارت بحرا، وأنها لا تقتل إلا العوّام، ذلك المغني كان على حق البحر لا يبتلع إلا العوّام.

وأني ما سقتها للشاطئ ذلك اليوم إلا لأراها تخالطه تمتزج به دون أن تدري، نسمات الشاطئ الصخري حملت خصلات مـــن شـــعرها المنسدل بلونه الذي لم أعثر عليه بعد في قاموسي- ربما للنساء قواميس خاصة- شرعتُ أفتت صخرها القسنطيني بأمواج رجولـــة هاجـــت لرؤيتها، لم تكن تصغي، سمعها وكامل حواسها كانت قد تشردت في الأفق البعيد تفتش لها عن وطن يشبهها، هي مازالـــت لم تـــتعلم أن لا أوطان للعربـــي، نحن شعوب ضائعة وسط أنفسها لا نشبه أوطاننا ولا ماضينا ولا حتى حاضرنا، بل إننا حتى لا نشبه أنفسنا.. لكنها لا تقـــرأ كيف لها أن تعلم.

لا تقرأ لكنها تسحر، تعرف كيف تسحرك بأقل عقار.. بل قبـــل حتى أن تنوي ذلك، عيونها العالقة عند اللامتنـــاهي، بعثـــرت دقـــات قلبـــي، شكلت بـــي حقدا من لون خاص تمنيت لو أني امتلكتها شهرا واحدا، أسبوعا واحدا ولو حتى يوما واحدا، لكني ما عدت أؤمن بحـــب يعيش يوما ولا حتى شهرا، ما عاد بـــي فضول لاكتشاف طعم امـــرأة، بـــي عطش لتناول الحياة لقمة واحدة من يد امرأة.. امرأة واحدة.

ما عدت أرتبهن على القوائم، بل ما عاد ثمة قوائم، لم يتبق غيرك ذرية على صفحات الفؤاد

ويعرف الفؤاد أنكِ لن تكوني يوما له، واتخذ الرجل مني قـــراره بكف سحرك عن صبري:

- غدا أعود إلى قسنطينة..

تتطاير خصلات من شعرها لتغطي وجهها، تحجب عني لـــذتي بتهشيم غرورها، يمتعني انحسار كبريائها ألف مرة أكثر مما تمـــتعني قبلتها

تزحف تنورتها القصيرة جدا نحو البحر، وعكسها تسير نظـــرات امرأة لا تعرف كيف تعيش من دوني ولا هي عرفت كيـــف تعـــيش معي..

تلقي نظرة لا هوية لها عليّ، ترفع رأسها تمدد عنقها، وتلقـــي إلي برفضها كأنما انـــزلق، وقع سهوا:

- لن تفعل.. قسمطينة المسكينة لن تملك صبرا عليك

- آسف آنستي، قسنطينة معتادة عليّ

تنـــزلق هذه المرة ضحة الغرور، تعقف بصرها بسرعة نحـــوي، تبخسني شهوة أجّلت عمرا، لا تستجدي بقائي ولا هي تهتم لرحيلي، ربما ما كان علي أن أحلم، فمنذ البدء أنا ما كنت أكثر من محطـــة أو ربما كنت جسرا تقطعه حافية القدمين لتدغدغ كل نقطة من رجولتي، ثم تبلغ غاية مسيرها فلا تعود تذكرني، ولا حتى تذكر عبورا شوه قشرة النفس والجسد.

ها هي تفعل بـــي تماما ما فعلت به ذاك المشرقي الذي قرأها فما أفادته بشيء شهاداته العليا متخصصا بها، قتلته بنظرة واحدة، أحرقت جثمانه ونثرت غباره دون أن تلفظ اسمه.

تعاود الشرود في الأفاق البعيدة كأنها تقف وحيدة، كأني ما كنت حاضرا إلى جوارها، أي لون من الكبرياء أنت، وأي حقد تبذرين دوريا

تلتفت تقطع علي حنقي، تغرز نظراتها بقلبي:

- كل مساء تمر به يقتتلان و لم ينتصر منذ الأزل أي منهما؛ لا البحر أطفأ اشتعال الشمس ولا هي أحرقته وجعلت كل مائه بخارا.. ألا يمكن أن تجاوره فيعانق بهاءها ويقبلها.

تتصدّع أحقاد الفؤاد فيتفجر منها ماء هو لون خاص من الحب، حبها هي دون كل نساء الأرض:

- قد توجعها القبلة أكثر من الحرب..

لم يفصلني عنها غير صدع صغير شفتاها كانتا على مرمى قبلة من نيران عشقي، لكنّا تصدعنا وانقسمنا صخرتين بينهما هوة وواد أسموه واد الرمال، وفي غمرة تدفقه تاهت القبلة التي لم تولد من شفاه امرأة لا تقدر على التدحرج نحو الحب، لا تتنازل لتحب أحدا، امرأة تصطنع بصوتها آلافا من العاشقين لكن لا تقدر على منح قبلة واحدة لرجل واحد، يتعبد بمحراب عينيها منذ شهر، رجل لم تكلف نفسها حتى عناء السؤال عن اسمه أو مهنته، تقنع جدا بنظرة واحدة على بيت يقطنه لتصنفه أدنى من القلب.

امرأة من زمن الأباطرة، ما دام حكم الأباطرة إنه زمن المستضعفين وثورات المحتقرين، لكنك لا تقرئين فكيف ستعرفين.

تنزل نحو قدمها تنزع حذاءها تلتفت عائدة إلى البحر عبرتني قشعريرة لم أدر أكانت فزعي الأرعن أمام كل نقطة من جسد لم أخلع ثيابه قبلا.. لم أخلعها سرا.. ولا حتى خلعتها حلما.

أم أنها الرغبة التي أجلت شهرا شرعت تمزق أغشيتها وتعلن حضورها، و لم أجرؤ على منعها لكنها كما تفعل دوما خيبت الرجولة وربما الأنوثة أيضا، وبدت كما ألفتها فشلا عاطفيا فاضحا، ما كانت تخلع ثيابها، كانت تروم تبليل قدميها بماء البحر، ربما خالته دماء المعركة بين الشمس والبحر.

خطوتان تقهرانها تعود

- هل خدش الشاطئ الصخري أحجارك الكريمة

لم تجبني، مرتبكة كانت، أوراق مبعثرة علت محياها، ما بالها ألقي نظرة خلفها، أزيد اضطرابها، تتعثر تتعرض لوخزة قنفذ بحري أمد يدي إليها، تخلفها وتسير نحو سيارتها، لا تزيدني أكثر من كلمة واحدة "أحمق" أحيانا أسمع هذه الكلمة منها أكثر من عشر مرات في اليوم الواحد مع ذلك لم أقتنع تماما بأني أحمق.

أبحث عن سبب لضيقها لا أعثر على أكثر من جسدين لا صدع بينهما، عشيقان يمارسان هواهما علنا لا يسترهما غير ظلام ليل شرع يسربلنا، محرج لكنه عادي لم ارتباكها، تثيرني سذاجتها أدنو منها، منكفئة تتشاغل بقدمها، يستهويني إحراجها يمتعني ضيقها، يبلل نفسي كمطر أول الخريف على الصخر العتيق، ينعشني:

- أزعجك منظرهما أم أثار غيرتك

- غيرتي، أنت أحمق، ألا تدعي أنك متدين، أليس هذا محرما.

هذه الغبية لم تعش كفاية بين المسلمين مازالت آثار من السذاجة تطبعها، مع أن الغربيين الذين تربت بينهم أدهى من هذا

كيف تسلّم امرأة بعريها بحرمة الزنى وهي الزانية ثوبا، عطرا، وحتى مشية:

- حرام.. من يتحدث عن المحرمات أنت التي تعبثين بمستقبل الأمة شبابا، ثقافة وحتى سياسة، تعدين علاقة عابرة حراما، ماذا عن المغنين الساندويتش، ماذا عن المخدرات والخمرة، بل ماذا عن الساسة الذين تعبث بهم عائلتك المحترمة، والرشاوى و.. و.. هي حلال كلها

- تبا لك أنا لا أجبر أحدا على الإصغاء لثلة الأغبياء عديمي الموهبة أولئك، ولا ضربت أحدا على يده ليتناول المخدرات.. أنا أقدم سلعة يوم يتوقف الطلب أتوقف عن عرضها.. ثم نحن دعامة الاقتصاد الوطني.. الفاتحون أبواب الحرية.. زبائننا هم النخبة المثقفة، أنت أي ثقافة لك، غير سافراتك، ولتعرف نحن.. عائلتي التي تحتقر هي التي أنقذت الوطن يوم كاد يستولي عليه المتطرفون... أحمق

أدنو من عارم غضبها أضع كفي على خدها أحضنه، أكاد أقول، لكني لا أقول شيئا.. ما معنى أن تشرح لدماغ ممغنط لا يعي..

- ... مراهقتي كانت بالولايات المتحدة أتعرف معنى ذلك؛ لقد وجهتُ للطبيبة النفسانية لأني رفضتُ العلاقات الحميمة، تعرضت لضغط لا يقوى على احتماله أحد.. شُهّر بي صرت غاية كل غواية.. حتى من أساتذتي، مع ذلك لم تلمسني يد، أتدري لم؟ فقط... لأن أمي قالت هذا حرام.

دفعَت جسدي أبعدَته عنها استوت جالسة على مقعدها تنتظر انطلاقي قطعت الكلمات جميعها، مع أننا غدا نفترق و لم أرو عطش الكلام بعد.. دوريا

أنفترق قبل أن نتفق أم أن علينا أن نفترق لأنّا أبدا لن نتفق

م

تفيق الغفلة على تشوهات الضمير، أجدني في فـــراش رجـــل منتصب قبالتي يؤدي بعض الصلوات.

كان فراشا بسيطا جدا لا زينة على وجهه، وإلى جواري علـــى أرضية أشبه بالرصيف منها بالغرف تناثرت كتب كـــثيرة في الجهـــة المقابلة لموضع الوسادة طاولة عليها جهاز كمبيوتر محمول صغير جدا، تنـــزل النظرات.. دَرج صغير يفصل بين غرفتين هما كامل المنـــــزل يتمدد أعلى الدرج الصغير أيضا قوص بزينة قديمة متآكلة، على جانبيه ستائر عتيقة، الغرفة الثانية بها أريكة جلدية من طراز قديم أيضا، أمامها طاولة زجاجية وتمتد سجادة صلات يقف عليها رجل..

رجل لا أعرف من هو ولا ما ساق عنوانه إلى ذهـــني، تعـــبر جسدي قشعريرة تنشر عليه فزعا وتتقد العيون حقدا، يسبقني الرجل إلى اللغة، يحاول طمأنتي فأستكين، هو ليس من النوع الذي يمكن أن يفزعني، ولا تكف الذاكرة عن محاولة استرجاع هذه الصورة أيـــن قابلتها، فلا تعثر على أكثر من اللقطات الأخيرة من صورة شـــاب أسكنته القبر، بل لم أمنحه حتى قبرا أحرقته وستسوقه الرياح لتنشـــره على كل نقطة من العمر.

أفقد سلامة قيادتي لنفسي، لم أستطع كـــبح جمـــاح أوجـــاع الضمير، إن لها لسلطانا

يدنو الرجل وجلا:

– أتذكرتني آنستي

– ملامحك مألوفة.. لكن

– سجلت اليوم بالجمعية، مر بك ملفي صباحا، لم نلتـــق.. كنتِ مشغولة

يحاول كثمان أسئلته لكنها أعتى من أن تختفي خلف اللباقة.. ما خلته يومها لباقة، نظرات غريبة تقرأ المستور على مهل.. ببطء شديد، يقوم يحضر منشفة ويقترح علي أخذ حمام لأن منظري سيخيف عائلتي، إن عدت إليهم بهذه الفوضى المنتشرة على التقاسيم، ثم بمنتهى من الحيطة تلتبس بالانبهار أو الاحتقار لم أميز، أردف أنه لم يستعملها بعد، دخلتُ حمامه الضيق ألقيت نظرة على وجهي فزعت، تبعثر الماكياج سيلا مع دموع لا أذكر أني ذرفتها إلا وأعود أبكيه.. أو ربما كنت أبكي نفسي وضميرا لم أعثر عليه إلا وقد شوهه حادث جاء دون داع، لا أسباب له ولا حكمة منه.

يسمع أنات جاهدت نفسي لإخفائها، يطرق باب الحمام، أفتحه يجدني واقفة أمام مرآته، أراقب تشوهات شرعت تطفوا للسطح، تسألني حيرته ماذا فعلوا بي هل اعتدوا علي، فقد لاحظ ما حل بسيارتي

وأجبته أطفأت شعلة الفضول، رويت ما كان و...

طلبت إليه إيصالي لأني لن أقدر على لمس المقود

بعد الليلة... ويفعل.

أدعوه للدخول، بشكل ما استبقيه إلى جواري، أول ما يلاقي الغريب الذي أسوق زوجة أبي، هذه النؤوم الضحى ماذا كانت تفعل في الباحة فجرا، تقترب بسرعة تستطلع آثارا كان حمام السيد قد محاها، تنثر عبارات لا مواقع لها من نفسي، أشير إليها أن تغلق فاها على ما تبقى في جعبتها من حماقات، تبدو متفاجئة مع أنها اعتادت مقتي. أدركتُ أن مسرحيتها الهزلية لم تخرج لأجلي، بل لأجل القادم الغريب، ألتفت إلى اندهاشه، أخلفه معلقا لا أفك

انغلاق الموقف دون فهمه، أعود إليها أطلب منها أن تطلب من أبي الحضور وتختفي.

أسير بضيف الفجر نحو غرفة هي مكتب حسب التقاليد الهندسية، إنها الغرفة التي يحدد فيها مصير المال والأعمال.. وهذه البلاد أحيانا.

يطول مكث والدي، لن يفيق أعرفه، أتشاغل عن غيابه برفيقي الذي وقع خلسة من السماء، ليرتسم ملاكا يخبئ أعمال الشياطين.

هو ذا ياسر، رسم وطبع لا يتفقان مطلقا.

يحضر أخيرا، أسوق إليه النبأ دون كثيف حيطة كما عودني، لم أدرك لثقتي البالغة بياسر سببا، فأنا لم أعرف الثقة يوما، كنت بالكاد أستكشف معالمها مع هذا الرجل.

كم عسير أن تصف الآخر بأنه رجل، صفة تقهرني وأنا أمنحه إيّها مرغمة عن كبير استحقاق رغم أني أبخسه إياها.

كبيدق يعيق حركته يخرجني أبي من اللعبة يخبرني أني متعبة وصار لزاما إراحتي. لا يعرف أبي أني دفنت راحتي في قبر لن يحظى به الفق لأنه سينام إلى جواري حيثما حللت، وأنه بعد ليلتي هذه لن يغادر فراشي بل إنه سيعلق على جسدي. رماده الذي نثرته الرياح تجمع بكامله على جسدي ليستحيل الجسد له قبرا..

يعود بعد مدة لا أعرف مقدارها يطلبني، ليتلو علي لائحة الواجبات والممنوعات، يعرفني على ياسر، لكن اللغة كانت قد خلعة برودها، وانقلبت أوامر لا مناص لي منها، ياسر الشاب البريء الذي عثرت عليه بين صلواته يغرق حتى أذنيه في وحل والدي، ينقلب سائقي بقرار أبوي متسلط، بحثت عن عذر لقبوله بالتواطؤ فلم أجد

غير الخوف من سطوة رجل يجمع خيوط القدر بين أصابعه.. رجل لا ظلال له، وأنت يا رجل الصلوات الفجرية أتعين أبي ليمحو كل ظل لي، لم أملك اللغة كانت قد هاجرت تفتش لها عن منطق بين القبور فبيننا لا منطق ولا عقل مطلقا.

وجدت لي حجة في مغادرة ياسر رافقته أشيعه، والنظرات تفتش عن سيارتي، كأنها تفتش عن الفق عما قد يكون تبقى منه لم أعثر عليها، قبضت دون أن أدري على ذراع ياسر سحبت صمت مواته تخاذلا إلي:

- إياك.. إياك أن تفعل
- أفعل ماذا؟

مرة اللغة على شفاهه، تغص مرارتها في حلقي تثير...

رغم أنه ضحيتي لم يثر أكثر من حقدي

- تأخذ سيارتي وتحمل قضية هي قضيتي
- ما عدنا بزمن القضايا آنستي لقد انقرضت منذ عمر، أم أنك لا تقرئين.

منذ عمر!! العمر كان قد انتهى أم أن الرجل الذي يقرأ لا يفهم مطلقا ما تروي له اللغة.

حررته فأنا لا أنوي الخروج اليوم، ثم لا تحضر حتى أطلبك لا شهية لي للعالم، علي أولا أن أدرب نفسي على التعايش مع الساكنين الجدد داخل جسدي؛ القاتلة وجثة القتيل، وكل هؤلاء الذين خلفتهم أيتام مودة الضحية.

كم عمرا يلزم المرء ليتعرف على كل هؤلاء، ثم يعتادهم، ليتحالف معهم ضد مواته، فقط ليستمر ضد النهاية الآتية يوما.. الآتية حتما..

لا

وانتهينا مع أننا ما كنا قد عثرنا على بداياتنا بعد، ما من داع للبدايات فالبدايات الجميلة تجد لها دوما ممحاة بالغة الأنوثة، أنا قبل هذه المجنونة غرورا، ما كنت أكثر من هاو لفنون الغزل، بل إنها كانت هواية هامشية أمارسها رفقة بعض المحترفين. إلى أن محت كل هواياتي امرأة واحدة تعثر العمر بها خلسة على صفحات افتراضية، لتُسكن قلبي شوقا مجنونا، تبتره وهي تدخلني الخشية وما كانت التزمت حتى بالحياء، خلفتني بارد النبض، عاجزا عن امتلاكها.. امتلاك الجسد الذي منّتني به، وفي قلبي كانت بذرة الأسى تعينها، أنا ما كنت راضيا على التهام جسدها دون منحها الأمان الذي تريد، وهي ما ملكت بعض الصبر لبناء نبض القلب بعد أن جن لها نبض الجسد، ركنتني وسارت إلى رفيقي سامي.. تبع خطوها، وكانت تعرف من هو.. تبع خطوها وهو لا يعرف من هي، وليته ما عرف من كانت.. وليتني ما كانت القربان بينهما، بل ليتني ما عرفتهما يوما.

امرأة أعتى من الأنوثة، بالعبارة الصريحة أعتى من الفحولة، كانت تعرف عن نفسها ما يخشى الرجال.. رجال بعمر العشرات وتقلب المزاجات، كانت تعرف أنها تقدر على امتلاك القلب، مع أن القلوب لا تملك، جاور سامي قدمي الأنوثة، وبالأنوثة قلبت كامل رجولته، امرأة قرأت نزق الأفعى الذي يعيش رجل لا مؤمن كثيرا بالمؤسسات الاجتماعية، لكن يؤمن بشفافية تامة بالحب.

وكنتُ الشاهد المغيب، فهو ما عرفني على حبيبة كلماته وغزلٍ لا ينتش بفؤادها غير ورود من الجليد، جمدت شهوته رجلا يعيش للجسد، أجلتها لمواعيد وحدها تعرف تواريخها

ما منحته من جسدٍ اشتهاه شيئا ولا حتى قبلة، لفت حوله شعرة معاوية، وفتحت أمامه كل الاحتمالات مارست عليه كل المناورات، جعلته روايتها، رواية لا تنتهي، لا تضع حدا لألاعيبها.. مناوراتها.. مراوغتها، ما انتهى العرض إلا بأن صرعت قلبه بضربة قاضية، وما كنتُ إلى جواره مع ذلك أصابني بعض ما أصابه، ربما أسوء ما أصابه

رُمت الفرار فإذ به يقبض على صداقة كانت جامعتنا، ليجعل مني كاتم صوت لأنات قلبه الذي أحرق عشرات بل مئات القلوب وما ناله من عطبها شيء، فإذ هو اليوم يدفع الضرائب كاملة عن كل سنوات العشق، أما أنا فما وجدت لي سندا غيرها كانت جلادي وبلسم شفائي منها.. من صديقي، ومن عبث العمر، قلتُ دوما أحبك حبا محرما هو الأعذب.. هو الأمرّ. ما قالت أكثر من أنها تحب حبي لها

احتفظت بكلينا، وما نلنا منها غير كلمات، بعض العِظات عن حرمة الزنى، عن الحب العفيف وسراب ساقته من أرض لم تطأها.

كان حبيبها وكنت احتياطي العواطف الافتراضية في حياتها، احتفظت بي على هامش مغامرات لا تعدو تعداد الكلمات، وانتهى صديقي هاجرا لها، لصمت جسدها الذي لم يمنحه أكثر من عِظات ما كانت بشرفها، وما بكته ولا أحست بُعده، فقد كنتُ أعظم احتياطي عشق بين يديها، لكني أحرقت بيدي قلبي وغادرتها، لتتفتق أحلامها على السراب، وتعيش الأنوثة خواءً. فعاودته تربصت قلبا تعلمُ يقينا أن لن يكون لغيرها

وتزوجته فقط.. ببساطة الكلمة

تزوجته.. أما أنا فجاءتني قبل يوم.. يوم واحد من زفافها إليه تنثر بذورا لن تنتش على أتربة أحرقتها سنوات محبة أكنها لذلك الصديق،

وبسمات أدين بها له، جاءت تتربص قبلة هي الأولى في حياتها، أرادتها مني دون كل رجال الأرض.

فأنا حبيب الروح -هكذا قالت-

أخطأت العناوين، التبست الأزقة عليها، فأنا ما عدت الشاب الذي كان، لقد ألمرت عِظاتك وصدقت.. صدقتك

وصدقت.. صدقتها عِظاتك.. تلك

وانتهى الشبق إلى العفة، زمن يتعفف فيه الرجال، فالنساء منشغلات بالتحرر وكل قيد، يرتبن الموضة أو هي ترتبهن بسفور شديد

كذبت عليها بمصداقية مطلقة، هي عششت بالروح، وعشق الروح لا يشفى، إلى أن صعقتُ بامرأة من الصنف الممحاة، غسلت كل جزء مني، كل نقطة قبل أن تلفظ كلمتها الأولى، بل قبل أن ألفظ كلمتي الأولى.

تبا لك ذرية أي إعصار أنت، أي نار لا تبقي ولا تذر لأي امرأة من أمل.

سقتني إلى جمعيتك بعد ألف قسم وقسم أديته بعد اللقاء الأول بالجامعة، ها أنا سنتان بعده آتيك، تسوقني خيبتي أمام نفسي، حاولت معها فما طاوعتني، أردت فقط أن أبدء بقبر امرأة ما عادت الحب، انقلبت زوجة الصديق. أن أفتش عن امرأة أخرى أمارس معها بعض النبضات، وما طاوعتني النبضات، ولا انصاعت النفس للإرادة، فحملت الخيباتَ وأحقاد كِلتُها لك جزافا عوضا عن كيلها للأخرى، فقد كنت أنت لا هي.. كبرياؤك، تعاليك، ما حرمني نبضاتي، ما كانت هي فقد إلتأم جرحها الافتراضي مع أن آثاره ما تزال فاضحة.

حتى البدايات منشطرة عند قدميك، يا امرأة ما تبعتك إلا لأقتلعك من صمامات القلب، أنت العالقة عليها تلوثين كل دفقة من

دمي بعطرك وحمرك، بصمت حضورك وتعالي كبريائك المجنون، أنت فتنتي.. كامل الجسد تمرد مذ لمحك، انشق وأعلن العصيان ما عاد يطاوع محاولاتي المريرة لمجاورة أي امرأة سواك، بمجرد محادثة عادية ما عادت تستقيم لي، كنت تحتلين كل وجه، كل بسمة، كل أنثى

وها أنا

أفتش عندك عما يقتلعك من.. من صمامات العشق بالفؤاد

بدا عصيا نحث عدو لك منك، في اللقاء الأول

الأول بتأريخك الثاني بتاريخي

أنت حتى لا تذكرين.. ما كنت تعرفين أنّا التقينا بالجامعة القسنطينية، لا تعود بك الذاكرة إلى أبعد من لقائنا بجمعيتك، أنا دوما كنت تلميذك، على يديك أتعلم كيف أعشق حد الحقد.. لا مؤسسة غيرك تلقن هذا الجنون

دخلت جمعيتك ربما ككل الآخرين، وما كنت مدركا أني لست أكثر من رقم على لائحة، وأنك نذرت العمر لانتظاري رجلا لا تذكرين تقاسيم وجهه، أي حماقة أنت.. كنتُ بين يديك وكنتِ تقتلين كل خيط قد يربطنا، إخلاصا لرجل هو تحديدا أنا، رجل لن يأتي أبدا مع أنه واقف أمام باب غرفة الدروس بجمعيتك الأنيقة

وكنتِ كما أنت دوما زلزالا يضرب أعماق البحر ليغرق كل شواطئ الكون بموجة واحدة، تسونامي تمحي كل الجزر اليتيمة. لمحتك فما طاوعتني خطواتي خطوة أخرى مع أني حاولت اقتلاع قدمي إلا أنك كنت أقوى، بدفقاتك المتتالية، بوجه بدا لي كعمر من الشوق، بجسد ملك كل تفاصيل سعادتي، بثوبك القصير جدا تهتز أطرافه فتتشكل رقصات لعشرات من راقصات الباليه بالتفاتهن، قفزاتهن، ودوراتهن، على ألحانك، ما كان مالوفا غناؤك.. كانت أغان غربية،

يومها استوقفت لغتك الإنجليزية دهشتي، وسألتُني أنَّ لك هذا النطق حتى أساتذة الجامعة لا يعثرون على هذا الحد من التوفيق، ثم استدارت اللغة ومعها الغناء نحو قسنطينة لم تسوقي الاستخبار شرعت مباشرة تدندنين، ويرقص المراهقون، يقلدون تلك الهزات الخفيفة لنساء كن هادئات، انقرضت تلك الرقصات الثقيلة تماما كما انقرضت نساء أثقلهن الدلال.

رقص المراهقون ما علموا أنها ما كانت تغني، أنها كانت تبكي مدينتها

"قسنطينة رابوا سيسيانك

حزنتي وراحوا عليك أوليداتك

حزنتي وراحوا عليك.. يا قسمطينة"

أنهت حصتها غادرت القاعة تركت هنالك كل الذي أدهشني، لتدهشني مرة أخرى وهي تخلع تلك الطفولة التي كانت ترتدي معهم، تلقي بها كما تلقي عقب سيجارة، امتدت يدها أبعدت شعرها نثرته بالهواء ومعه تناثرت أمومة لبستها للحظات.. خلعتها بحركة واحدة.

يومها رأيتُ امرأة لا قبل لي بها، غرقتُ.. أصابني الدوار

انتشلتني عبارة ربتت على كتفي، كانت من مدير جمعيتك المشرقي الوسيم، الذي لم تنقطع أخبار أحدنا عن الآخر، ربما هو تضامن الغرباء، فكلانا كان غريبا، أنا حالي أسوء من حاله فقد كنتُ منفيا نحو مسقط رأسي، أما هو فغريب أوطان جعلتِهِ يعيش عندك ملكا، ثم لم يطل به المقام وأفاق من سكرة أوقعتها به ليجده منفيا فيك

سألته عن كل أولئك المراهقين الذين أحاطوا بك، قال أنكِ بشكل ما تروضينهم، تستقبلينهم بجمعيتك تغنين معهم ويتغنون بك ثم

يرحلون، وقد بنيت بداخلهم مستعمرات لا يقدر على وضع أسسها المربون، وأنهم أدركوا ذلك فعهدوا لك بهم.. قال أنك تتلقين طلبات أكثر مما تقدرين على البرمجة، وأنك أبدا لا ترفضين، خلط أوراقي جميعها أيمكن لك أن تكوني بكل هذه الـ.. كيف أسميها؟

أهي طيبة أم إنسانية، أم أنك فقط تحاولين عيش قطع من العمر فاتتك لم تدركيها.

انتهت الحصة غادرت القاعة

قال أنها هيبة الملك، أنكِ امرأة تملك نفسها فتملك كل من يحل بمملكتها، ثم اكتشفت أنه منطقك وأن العبارة عبارتك.. لا أكثر

ساقني إلى مكتبه، إجراءات روتينية فهو كان ما يزال يذكرني، أبدا لم يهمل أحدنا الآخر إنها أخوة شعوب مقهورة، أمام امرأة..

مريرة سخرية القدر

قد يوجه سخريته إليك، غبية إن كنت تأتمنينه، القدر لا يجير، فمن قد يجيرك منه، ومن سخريته.

اليوم أنت أداته وغدا قد تغدين غايته.. حبيبتي

تبا أنا بالكاد أخطها تلك الكلمة، أعرف أنها لا يمكن أن تصف امرأة من عيارك

سألته ما تفعل به لامبالاتك، لم يجب، أو ربما كان الجواب الصمت، و لم أعثر عن تأويلات تناسبه.

حملت أشلائي سريعا غادرت، فيومي الأول من مذبحة أعددتها لكِ لم تقتل غيري، أنا الذي ما سقت الخطى إلا لأعثر على ما قد يخرجك من الفؤاد، إذ أنت تستوطنينه عند اللقاء الأول مع أنك ما كنت قد إلتقيتني إلا سوادا على بياض استمارة المعلومات التي كنت عبأت.

خلفت لك اسمي وعنواني الذي علق بذاكرتك، لينتفض وقد ضاقت بك كل السبل وانغلقت الدروب، لمع في ذهنها ما قرأت صباحا؛ اسمي وعنواني، فهرعت تركن سيارتها المهشمة أمام بيتي.

أكان قدرها ما ساقها نحوي، أم أنه قدري ما جرها إلي، ونصيب من الوجع كان مقدرا لي دون كل البشر. كالأحمق رفعت جسدها مددته على فراشي، تركت لها هناءتي وتكورت على الأريكة، أراقب أنوثة احتلت بيتي.. احتلت قلبي.. احتلت كل الذي سقت الخطى لأخرجها منه.. فقط لأخرجها منه.

أفاقت على ذهول وريبة لم تبددها صلواتي، بوجه غائم الملامح.. تائه في الكون لا يجد مرافئ لأوجاعه، أيمكن أن يكون بها موطن يستشعر الألم، أيمكن أن تألم امرأة من عيارها

كانت قد قتلت رجلا تقول أنه كان شابا غادر الحانة التي كانت تشمل بها رفقة والدها، إنهم عائلة متضامنة حتى في السكر.

جاء الفتى يتبع امرأة لم يعلم أنها تتشبّه بالموت، بل إنها تشبهه حد الالتباس، أحيانا كثيرة لم أدر أيهما كان يتربص بالآخر أكانت ترصد الموت، أم أنه الذي كان يلاحقها.

أفاقت على وجهٍ لا تعرفه. أفاقت على الفزع.. لا بل هي كانت فزعا زرع في روحي، زلزلت منها كل نقطة وهي تخبرني أنها قتلت

مسحتُ دمع عيونها برقة رجل يقف أمام امرأة تنهار، للحظة حسبتها هي الضحية، هي القتيلة التي ذبحت بيد من ساقها إلى تلك الحانة، أي أب هذا الذي يسلم وحيدته لليل الشوارع العاصمية، جواب حيرتي كان فزعا أشد من الحيرة ذاتها، لم أحتط من هذه المرأة التي قد تلفق لك أي جرم وتزج بك في أي متاهة، ولا من عائلة تتاجر برغباتنا المكبوتة، انسقت خلفها أتبع رغائبها سقت السيارة التي تدلي

باعترافاتها وشهاداتها مجانا دون حتى أن يطلب إليها.. فهي كانت مشوهة بالكامل، ومن كل الجهات، ذاك الشاب فتش عن حتفه، بل كان مصرا على ارتداء موت خاطه حسن امرأة. كم حمقاء النفس، كم عبثية في كل خطواتها.

دخلت دوريا بيتها، كان على هندسة قصور رياس البحر، لكنه لم يكن بالعتاقة ذاتها. تبا لكم من عائلة زائفة حتى في مسكنها، وجميلة حتى في خطوط هندستها، سارت أمامي خطوات رغبتُ بالعودة مغادرا... لكن الفضول أقوى، سحبني، ثم هي رحبت جدا بوجودي، حتى أني لمحت بين كلماتها نساءنا.. نساء قسنطينة، المدينة القديمة، سلالة انقرضت عقودا قبل اليوم ها هي تبعث للحظة في هذه الأنوثة الدافقة النغمات، خطواتها توقع سنفونية ترقص عليها حواف تنورتها على بعد شبر من ركبتيها، كراقصات باليه عالميات، هرعت نحوها امرأة لم أعرف لها هوية غير أنها بدت سيدة المنزل، سيدة لا تملك من أمر بيتها أكثر من إطاعة ابنته المدللة التي تنهرها رافعة صوتها وهي تطلب منها إيقاظ الوالد والمغادرة، بإشارة واحدة تمحوها.

تسمرت مكاني لم أملك كلمة، ولا حتى مجرد إشارة قد أرفع بها ذلك الحرج.. تلك النظرة التي استجدتني من امرأة تهان أمامي ولا تملك ما يرفع مظلمتها

وما كنت لأرفعها.

أدخلتني دوريا مكتبة ضخمة زينت بكتب لم تنطبع على تجليدها الفخم بصمات ولو حتى قليلات.. اصطفت إلى جوارها قرورات أنيقات، لسن أكثر من نبيذ.

لماذا جاءت هذه الكتب لبيت امرأة لا تقرأ، أم أنها تماما مثلي لم تخير أجبرت على دخول مملكة لا تشبهنا، ولا ساكنوها يشبهوننا، هذه

التي كانت تبكي بحرقة أقلعت فجأة عنه.. وتكومت إلى جواري على أريكة فخمة وأخذت تحرقني بين سجائرها المتواليات.

أعصابـــي احترقت، لفعلتها، استحالت أعطابا لم أملك ما أمنعها به من التدخين، نصحتها.. كان ذلك كل ما ملكت. أي سلطان قـــد تملك وسط مملكة الرعب هذه، بيت مزروع حرسا وكاميرات مراقبـــة يمكنها عد أنفاسك

يحل أخيرا والدها تتفحصني نظراته بدقة بالغة، كنت موضـــوعه الوحيد، بل صرت وحتى اليوم انشغاله الأول، مع أني ما كنت شـــيئا مذكورا، ما كنت أكثر من حماقة..

بين تقاسيمه قرأت حماقاتي وعرفت مقدارها، وأدركت أخيرا أني بين فكي حتفي، وأن الباقي من العمر لن يكون أبدا كالماضي.. تبا لها أغرقتني بالوحل حتى أذني، حاولت ككل الجبناء الفرار من هذا الوجه الشرس، خبرته أن ابنته احتاجت من يقلها وقد فعلت والآن أترك لكما مساحة لبعض الخصوصية.

انتهت كلمات الجبان فسالت بضع من كلمـــات المســـتحكم استبقتني وطردت ابنته، التي لم تمانع مطلقا، وما خلتها تفعل هـــذا بـــي.

شعرت أن أنفاسي تقف بالكاد تتجدد، اقترب مضيفي جلـــس مكان ابنته، حرك رأسه متسائلا دون أن يلفظ حرفا، وجدتني أخـــبر عنها لم أدر كيف أسرد ولا من أين قد أفتتح البوح، كان عليها هـــي ارتياده ما شأني أنا.

وجدتني أتشبه بها أكتم عنه لم أنبس بغير ما رأيت، مع أنه حاول الغوص بالذاكرة، قرأت ما لم تبح به هيئته الدبلوماسية.. كان مخبـــوءا تحت لسانه، ربما يمتهن السياسة أو أنه على الأقل يهواها، أما أنا فأمتهن

الحيطة، في بلاد الواق واق هذه قبل أن نثري ثقافتنا علينا أولا إثـــراء قدرتنا على كتمانها، لم يعد الأمر صعبا تعودنا عليه

و لم يخدمني بشيء، لم يسعفني للفرار من رجل قتلت ابنته رجلا

ن

بدل الضحية صنعت لي اثنتين، ماذا فعلت بك ياسر، الشـــاب المسكين صار سائقي ومرافقي في كل خطوة، حاولت اقتلاع قـــرار والدي بهدوء، لم يجدِ ولا نفع، انقلبت عليه فكانت حكومتي الساقط الوحيد جراء انقلابـــي، لزمت غرفتي، لا أقتني غير الجرائد أفـــتش عن النبأ الذي لم ينشر، والحكايا الـــتي لم تـــرو. لا أجـــاور غـــير الكوابيس. الفتى الذي لم أر وجهه في اليقظة احتل بكامل جســـده المحترق أحلامي، وانقلب صوت المغنية صراخا للقاتلة التي لم تعثـــر على ضحيتها.

استجديته، أقسمت عليه بأعز ما يملك.. والدي

أن يبحث عن عائلة القتيل لأحاول تعويضهم ما فقدوا، لم يشـــفق علي، لم تشفع لي عقدة ذنب لا تفتأ تتضخم داخلي إلى أن ملكتني.

أوكل إلى زوجته شؤوني الخاصة، بقرار أبوي متسلط صـــارت المتودد إلي، الساعي في خلاصي، دون أن تطرق بابـــــي دخلـــت جلست إليَّ تروي لي حكايا العجائز، عن عين أصابت فاتن جمـــالي، قالت أنهم أصابوا مني مقتلا، ها أنا أموت انتحاراً لا أكل ولا شرب، ولا حتى عدت أتنشق الهواء النظيف كباقي الخلـــق، قالـــت أنهـــا ستسوقني إلى إمام ورع نروي له الأمر وهو يخبرني ما أفعل بما يرضي الله، واشترطت أن أرضى بحكمه لأنها لا تجازف بكشف مـــا يســـتر والدي من أجل لا شيء.

هل صدقتها.. هل كان علي تصديقها..

رغبت جدا باستشارة ياسر، حملت الباقي من أشلائي سرت إلى الجمعية حيث عليه حضور درسه، بلغت بابها، لم تسعفني الجرأة، ولا الاختناق غادر حلقي، طلبت إلى سائق والدي العودة بي إلى البيت، دخلت عليها طلبت منها اصطحابي إلى إمامها الورع. والمحصلة بضع أدعية وأعشاب مذابة في ماء تُليت عليه آي الذكر الحكيم.. أو هو هكذا زعم...

صدقته بخالص من ثقة.. أنا صدقته.. وتناولتها..

كما تتناول الصلاة بخشوع، بهيبة منقطعة، لكن الساكن بين أحلامي لم يغادرها. العلاج الوحيد الذي سننته لنفسي كان فناجين من القهوة تبقيني صاحية فلا أحلم ولا يحتل أحلامي.

رجوت أبي مرات أخر أن يفتش عن أسرته، هذه المرة كانت الأمرَّ، لأول مرة عنفني واشتعلت أحقادي عليه، فببساطة شديدة صارحته بأنه رجل حقير وسافل، لكنه كان يعرف ذلك سلفا وببساطة شديدة أيضا طلب إلي إخباره بشيء لا يعرفه، ولم أبخسه خبرته أنه يستغلني وأن كل ما حصل بسببه، بسبب رجولته التي انطفأت ونخوته التي دفنت وكل تلك الأشياء التي ما عاد يقدر على رؤيتها..

لكن قراره لم يسقط وآلت انقلاباتي جميعا وبالا علي.

حملت.. مرة أخرى.. أنا حملت الباقي من أشلائي سرت إلى ياسر هذه المرة إلى بيته، طرقت بابه لم يكن هناك، جلست على عتبته أنتظر عودته ماذا لو عاد برفقة حبيبته أو واحدة من بنات الليل سأحرجه، انسحبت قبل أن أحظى بسيارة أجرة تجتاز بي مرارة العتبات وجدته يركن سيارته الصغيرة ويتجه نحوي يسألني ما الذي

ساقني إلى هذا الحي، أيعقل أن يكون بهذا الغباء، طبعا أنتَ، بإشارة خفيفة علمت أن علي التزام الصمت، فهو لم يكن وحيدا أطل ناظم مدير جمعيتي، اشتقت إليه، هو الشيء الوحيد الذي يؤنسني في عالم أشياؤه لها مخالب وأنياب، ابتسمتُ لا أدري أين عثرت على الابتسامة، اقترب ألقى نظرة لم تتعثر بظلام الشارع كشفت مستوري، وألقت أسئلة لا إجابات لها.

لم أكلف نفسي عناء الإجابة عنها فهو أحيانا كثيرة يشبه الباقين ينحدر نحو التفاهة، أنا أسمو به مضطرة لا خيار أمامي. تقدمنا خطوات نحو بيت ياسر يدرك ناظم الأمر استأذن، ترك مساحات الخصوصية مشرعة على ثورة ياسر الذي.. وبدل سؤالي ماذا أفعل عنده، أمطرني غضبا، فأخذت المفتاح من يده فتحت الباب دخلت لم أنتظره، جلست على أريكته الحقيرة وجدت جولة شطرنج معلقة إلى حين، أشعلت سيجارة وانتظرت عبور عاصفته.

مرت بسلام وجلس إلي. لا يدري كيف يطردني

م

وها هي تشرع تقتلني قصدت بيتي وجدتني رفقة صديق مشترك.. إنه ناظم، لم يقدر.. لم يخمن مطلقا أي أمر جلل ساق ابنة القصر نحو حي تآكله العوز، ثم هي صعّرت فضوله إذ لم تجب عن تساؤلاته، فخلعنا كلينا وساق الخطو بعيدنا. خلفني معها ومع أعين والدها الذين لم تفتهم حركة آتيتها مذ عرفني، حاولت طردها، لكن انكسار ضوء القمر على بشرتها أثملني، تلمستها عيوني مرت بكل نقطة من مزيج البياض والسواد، كم ناسبها الليل، كم تليق بها العتمة.. وكم كنت غبيا وأنا أتبع خطوها، تدخل بيتي تنير الغرفة، ثوبها كان أسودا طويلا

فضفاض.. للمرة الأولى ترتدي ثوبا محتشما، لم أدر كيف انفلتت الكلمات:

- تبدين مختلفة الليلة، كأنك أجمل، أو أرق

لم تعرني اهتماما فهي تسمع منها الكثير، لم تعن كلماتي الكثير فقد رأت العين ما لم يتوقع الفؤاد، ما لم أتخيل يوما، إنها مغرمة به، بناظم رجلها المشرقي الأنيق اللهجة، وهو صديقي أيضا، ربما هذا كل ما كتب لي.. أن أعيش لنساء يعشقن أقرب أصدقائي، لأبقى منشطرا بينهن وبينهم

حاولت جعلها تعترف لكن فيها شيء بل أشياء من والدها، تمسك دفة الحديث تسير بها حيث تشاء، قالت أنها جاءت تطلب ما لا يمكن أن يلبيه والدها

ضحكت.. ثم ضحكت.. ثم ضحكت

وأخيرا سألت ما قد يكون، فضولا لا غير، ترى ماذا تحتاج المدللة العزيزة.

- إذا كنت ستسخر فلا داعي
- و لم السخرية قوليها هذه الدرر
- أريدك أن تعرف من هو القتيل

قفزت من مكاني أشرت إليها بالتزام الصمت، جاورتها على أريكتي دنوت جدا منها، همست خبرتها أنهم هنا، لا يغادرونني مطلقا، كأني قتلكِ. عيون والدك لا يفارقونني يتبعونني بدوام مستمر. اقتربت أكثر مني حتى كادت الملامح تمتزج:

- حسنا حاول، حاول على الأقل..

لم أملك الوعود، فقد بدت عصية، وحدها الأسئلة نتأت فارقة شاحبة، لم تحظ بأجوبة فقد غاصت الآنسة بالنوم، وخلفتني تائها بجسد

يقطعك استتاره تحت الثوب الأسود الطويل تماما كما كان يذبّح رجولتك بسفوره.

تبا لامرأة تملك لا تدري ما تملك، وتبا لي رجلا يغفو الحب على فراشه ويخشى ملامسته. أعليّ كسر رهبتي من عائلتك أم عليّ فقط تهشيم كلمات آمنت بها دهراً. ربما علي صد الرغبة والغوص أيضا في تأجيل المتعة، فحبيبتي التي انقلبت زوجة لصديقي قالت دوما أن علينا تأجيل اللذة إلى الزواج، فهل أتزوجه هذا الجسد الأهوج، أم أنها كلمات لا شيء غير الكلمات تفرغك من رجولتك لتحتلك.. تملأك حد التخمة، فتشرع تصطبغ بها.

أحمل الباقي من عزيمتي إلى سيارتي أنام بها علها تعتقني خطيئة ما سافرت إلا لاقتلاعها، وها أني أغوص كل ثانية شبرا آخر فيها... تبا لك من امرأة.

ما عساها تفكر زميلتي حين تطلع على خيباتي هذه.

متى أتخالينني مرتبة أدنى من الرجولة أم أنك تعرفين أنه حب أعتى من المستحيل، لا يمكن، وإن أمكن لا يستقيم، أما إن هو استقام فلن يكتب له أن يعمر، حب يمر من العمر فيحرقه.

إنها امرأة من الصنف الذي تفر منه لتكتب عنه في صمت جسدك ووحدته وانفراده، قبل أن تلامسها، بل قبل حتى أن يخطر لك ملامستها عليك وضع نقطة، والعمل بوصية Lawrence Durrell الذي لا يجد لك أكثر من ثلاثة أشياء تفعلها بالمرأة، أن تحبها، أن تعاني من أجلها، أن تصنع أدبا، إن خيرت أختار الثالثة، لكن تفصيلات قدري تنبئني أني آتي الثلاثة معا دون سابق إصرار.

ب

نوبة من الخفقان أصابتني وأنا أملي عليه رغبة نفسي دون تعليل خفت أن يدرك المرامي، فيعدل عن إتيان المطلوب، مصيبته كانت كالعادة أنا، لم أكن أنا تحديدا، كنت أنا بشكل مخادع هذه المرة؛ ابحث لي عن أهل القتيل.

هذا كل المطلوب.

رفضه جاءني معللا برجل لا ظلال له، إنه والدي، لا يرغب بمعرفة شيء عن المساكين ولن يسمح لي بتعويضهم مع أن التعويض بالأصل مستحيل، غبي كعادته والدي، يمنعني حق من فعل يعرف مسبقا أنه مستحيل، لِمَ ينفق من الغضب ما لا داعي لإنفاقه.. ربما لأنه لم ينفق يوما ما وجب عليه.

لا أدري متى تحديدا غفوت ولكني فعل، على الأريكة حيث جلسنا جنبا إلى جنب، منذ أيام.. بل منذ يومي ذاك ما نمت، وفي هذا البيت الأضيق من غرفة نمت.. لم أسمع صراخه، ولا زارتني جثته المحروقة، ولا تجمع رماده عند أنفاسي، يغتالها.

استرخى الجسد استعاد بعضا من كثير ضيعه، واستعدتُني مع قليله العائد. لم أفق إلا وصاحب البيت ينشد صحوتي، يعلمني أن الوقت ضحى ولم أرجع لمنزلي خاف عتاب والدي أو ربائبه، أو حق زوجته، ذكرهم هكذا جميعهم بهذا الترتيب، ابتسمت لم أعثر على رد قد يناسب سذاجته؛ الفتى أحمق لا يعرف أن من ينفق على الأسرة يسودها، إن جاز تسميتنا أسرة، ما نحن إلا أشتات جمعنا القدر في لحظة سكر.. كان ثملا القدر لم يدر ما يفعل، والمصيبة أنه لم يراجع قراراته.

لا بأس بهم أسرة، طالما لا أحد منهم يزرع الريبة على دربي، الوحيد الذي أرغب باقتلاعه هو والدي، وهذا طبعا مستحيل، هو

لن يتنازل عن ثروتي إلا إن سيق إلى القبر، من يدري قد يشيد له هرما ويدفن نفسه بين دنانيري.

صعق الشاب المسكين، فتكرمت عليه بنظريات النساء التي لم أضطر يوما للإيمان بها:

- إنك نسخة مشوهة عن المجتمع الذكوري، تعشقون التحكم بالنساء، أتريد لربيب أبي الذي لا أعرف له نسبا أن يسألني أين أبيت.. أحمق.

وكان بكرمي أو يزيد:

- أنت لا تعرفين لذلك قيمة لأنك لم تختبريه، لو أنهم يسألونك لما حصل ما حصل.

-أحمق..

خلفته لحماقاته، دخلت حمامه إنه أضيق من فكره، كيف يقرأ هذا الرجل كل تلك الكتب، فلا تفتح منافذ لإنارة فكره.

الأحمق أردت إغضابه فألهب حقدي، حملت الباقي مني على أريكته، هممت بالرحيل قبل أن تفتح أبواب من معارك مجانية لا حاجة لي بها، ما أحتاجه فعلا هو بحثه عن أهل شاب أسكنته القبر.

قبل الرحيل لابد من الانتقام لإطفاء نيران حقدي، نبرة آمرة تجرح رجولته تأمره بالحضور لمنزلي بعد ساعتين فقد قررت العودة للعمل.

هكذا بهذه البساطة شرعت أخسره قطرة بعد قطرة.. بعد قطرة

لم يجب حقدي بل أهداني مفتاح شقته، ووصايا الرجال لنساء لم يعرفن المدن يوما؛ لا تفتحي الباب لأحد ولا حتى ناظم. فقدت أشرعتي هبطت اضطراريا عند رقة لم أعامل بها قبلا،

انفلتت قبل أن أدري تنهيدة تفضح شديد عوزي للفتة مع أن بحيايّ لفتات لا تعد.

. الفرق كان دوما في الغاية، كل هدية كانت تجر مطلبا أو مطمحا، لكنه رجل يهديني سكينته؛ المكان الوحيد الذي يفر إليه من عالم شحذ سلفا أنيابه، ويسوق معه خوفي وقلقي.

هذا الرجل حتما من مثقفي البلاد وإلا أنّا له كل هذا الضياع في لا شيء.. وحدهم رجال الثقافة يحملون الكون عبئا ويفرون منه إليه.. إنه أحمق آخر لا يعرف كيف عليه أن يحياها.. هذه الحياة.

يتدفق خوف كتمتُه:

- أين قضيت ليلتك؟ ارتجاف الصوت يفضح بالغ كتماني.
- غير بعيد عن أحلامك
- أحمق..
- هنا في السيارة لم أشأ الابتعاد خفت أن... لا أدري قد يعترون عليك في أي لحظة، بأية وسيلة.

لم أعقب للحظة غرقت حتى الحلم في رجل يصعب علي جدا أن أسمه بالرجولة، وترغمني كل لحظة تمر على الإقرار والاعتراف.

تبا لقدر يسوق إليك أحلامك في قوالب من جليد.. وتبا له إذ يرسمك فراشة تتسلى بإهدار العمر على حواف اللهيب..

ومرة أخرى لم أعقب، بل لم أملك أن أعقب.

شرعت الأحلام تحلم برجل أدنى من الحب، رجل يأتي على مهل يفتح لي صفحات ويخط لي كلمات.. لا شيء أكثر من الكلمات.. رجل لا يتقن من الحياة أكثر من الكلمات، أي مهن العناء تمتهن حتى تتخاذل عند جسد ألهبه صمت جسدك، وصمت نبضك.. بل وصمت غزلك.

رتبت الجسد وأثواب الجسد ببراعة أنثى علها تخدش رجولة رجل يزحف متسللا نحو العمق، رجل لم أعرف له هوية، رجل يهاب أبي الذي لا ظلال له، تراه يملك أن يظللني من أبي.. من قتلاي، ومن قاتليّ..

مضبوطة مواعيد الرجل، شرع يصدق أنه سائقي الخاص أم أنه يخال نفسه ملاكي الحارس، بوطن لم يعد للملائكة..

ياسر الوطن قتيل طموح جامح يسرق العمر منا، ما عدنا نعثر لنا عن محطاته، بل ما عدنا نلحظ وجودها. وعند ختام المسير نعرف أنا أرهِقنا دون داع وأنّا راحلون دون رجعة، راحلون لن نسوق معنا زادنا الذي أفنينا العمر في جمعه، أنّا لن نسوق أكثر من مظالم أنزلناها بالأضعف، وأننا سنقف عند ميزان يقتص لكل كلمة، لكل حركة... ياسر

سريع جدا ياسر وهو يلتقط رسما أنزلته عنوة بالتقاسيم ليمسح رماد جثة مازال عالقا على كل نقطة مني.

شرد الرجل لحظة في كل ما بدلت، وكانت لحظة غصت إلى حيث النبض كدت اسمعه، بل كدت أتلمسه..

كانت لحظة واحدة استعاد بعدها أنفاسه أسدل نظراته

ساقني إلى جمعيتي شحيح الكلام، ربما خاف أن يتسلل خوفه عليّ إلى نفسي.. يخالني أمقته، لا يعرف أنه غزل الفؤاد، ما أغباك ياسر. لا تعرف عن النساء غير...

ربما غيرها تلك التي لا تفارق خيال الذاكرة، زوجة صديقه التي عرضت عليه قبلتها الأولى قبل أن تزف لصديقه، كان عليه تقبيلها، إطفاء لهيب اشتعالها بدواخله، ثم تنقلب ذكرى لقبلة مسحت العشق، لكن ماذا تقول لأحمق يخال القبلة تجرح أكثر من الحرب.

الأحمق تنازل عن صمته ووقاره عند البوابة ونائبتي زينة تقابلـــه ببسمات لا تنقطع، تمتص شفتها السفلى وهي ترقب دخوله، تحييه لا تقطع دفقات كلماتها عنه، سحقت أعصابـــي، حتى ألقيـــت إليهـــا بعضا مما يناسب يأس أنوثتها.

لكنه رحل.. رحل عنا كلتانا.. حمل كتبه، بســـماته، وجســـدا مزق عمر صبري..

بل حمل شوق العمر لأشياء تشبه رجولته، عثرت عليها صدفة وأنا أطرده من القلب غلوا في الاحتفاظ بنقائه للقسنطيني الآخـــر، لم ألحظ قدرا جثم يسخر مني، من بالغ بطولتي، وخالص وفائي لرجـــل قطع خطوط حياتي قبل سنتين وعدني زيارة لم يف بها..

اليوم من العمر دهر أيها القسنطيني، أم أن أساتذة الجامعـــة لا يعرفون..

وبعدهما جاءني ياسر رجل أدنى من الحب، يتحـــدث لهجـــتي، وأعراف مدينتي التي ترغمك على الوقوع في حبها ثم تكشف لـــك حماقاتها.

رجل من صخر عتيق، من انـــزلاقٍ لقطرات مطر على جحـــر بعمر الأزل، عمر لن يمتد للأبد قسنطينة...

أكنتِ أنت في صورة رجل.. أم أنه رجل يلعب أدوارك بشريط حياتي.

قسنطينة كان بطعم أبوة انقشعت قبل أن تعرف إلي طريقا..

قسنطينة هو كان هو..

الأستاذ الجامعي القسنطيني الذي انتظرته عمـــرا هـــو ياســـر طالبـــي الشاهد على غواية لم آتها، وعلى مجازر أوقعتها به وبكل من جاور عند قدمي أنوثتي.

وارتسمتُ.. قسنطينة ارتسمتُ الوحش، سقط سهوا من ذاكرتي أن دوري كان الجميلة، لبستُ القناع الخطأ وامتد الخطأ أطفئ قلبي.. أحرق قلبي.

شوقه إليك.. مدينتي اقتلعه من بين نبضاتي.

خلف لي مفاتيح البيت هل سأحتاجه.. خبريني أنت خبيرة بالتاريخ قلبتِ منه صفحات وصفحات، أيأتي يوم تفقد فيه تلك الدار غوايتها فأهجرها، تماما مثلما فقدتُ كامل غوايتي فهجرني ياسر، بل هجرني الاثنان معا فكلاهما واحد، وحدها سذاجتي تاهت تبعد الحاضر إمعانا في عشق الغائب.

تبا لك دوريا وتبا ألف مرة أخرى لغبائك.

لعشق يخط الصفحة الأخيرة ولم يكن قد سطر الكلمات الأولى، لِم لمْ نبدأ بعد ياسر، متى قد تدنوا وتخط القدر قبلة.. قبلة أولى يتدفق بعدها العمر بكامل أعبائه يغتسل ويبدأ عهد جديد، لرجل له ظل وظلال.. لك أنت الرجل الذي أوقف دواليب المملكة، ما عدت أملك شيئا، ولا حتى عدت أملك نفسي.. ياسر

أسلمتُك النبض واستلمتَ درب الهرب، أتراك أجبن من أن تحب، أم أنك أجبن من أن تضع ظلالا لرجل لا ظلال له، ذاك أبي.. أيرعبك حد الفرار، أنت الذي لم تصطنع له يوما خانة تصنفه فيها، ولا حتى كلفت نفسك عناء الإصغاء، كانت مرة واحدة أصغيتَ وامتثلتَ فجعلك أمينا على...

على جسد لم يملك جعلك تحلم به.

ياسر خيبة أم انكسارة هذا النبض، أم أنك لا تسمعه

لا تكاد تلمح صاحبته، وقد خلتني دوما تحديك الأنثوي الصارخ، إذ أنا لا أعدو كوني رقما على لائحة ما فتئت تطول.

عرضت عليه عمود الرخام، لم يملك الكبرياء سلطان على الكلام، قبل أن أفكر قبل أن أتدبر شأن مملكتي انفلتت الكلمات تعرض عليه ترجوه اصطحابي مشكلة في عمود رخامي يكاد يشبهني، تركه كما تركني وسار لا أدري متى يعود لكني أعلم أنه حتما يعود، حتى وهو يلفظ خيانة بحجم فجيعة، بعمق إحراق إنسي.. لا تعلم إن كان حيا أم ميتا، المهم أحرقه، ثم انتظر العدالة الإلهية ستأتيك فجائع تطهرك، تجعل لبعض مفردات القواميس معنى، وأي معنى..

ياسر كان رجل القواميس.. كان يحتار كثيرا كل مرة تسعفني اللغات لأترجم نيابة عنه بعضا مما استعصى عليه، مع كل إخفاق لقواميسه وتوفيق للغتي، يسألني أن استثمر.. أن أهب أموالي للغتي بدلا من الإنفاق على الحمقى عديمي الموهبة الذين أختار من النوادي الليلية، لأصنع منهم نجوما لموسم أو موسمين، ثم أرمي بهم إلى قمامة الفن وما أوسعها من مكب، كنتُ أضحك، فهو لا يتقن غير التدريس، صناعة النجوم عصية على رجل لا يفرق النغمات ولا يجيد رصف الحسابات، رجل كتب ومحاضرات.. وقائمة لطالبات يتحرشن به ولا يمكنه حتى إدخالهن مجلس تأديب لأنه يخجل من مجرد تلفظ جرمهن، أما أنا فأقرأ لهفة الرجل، أقبض عليها، أسيّرها لخرابي وأعرف تماما أعرف كيف أبقيها خاشعة إلى أن ألقي بها في المكب ذاته.

ر

خلفتكِ أو ربما خلفتُني بين النبضات، وما كنتُ سقتُ الخطى إلا لاقتلاعك من صمامات الفؤاد فإذ أنا أقتلع الصمامات، بل والفؤاد ذاته وأخلفها جميعها بين أصابعك تعزفين بكائياتك، ولا تمسحين أبدا الدمع الذي لا يذرف إلا لذكر مدينتك

قسنطينة لو كنتِ أنثى لكنتِ هي.. تحديدا هي.. دون كل نساء المعمورة.. هي

قسنطينة ألا يمكن أن تستبدلي الصخر تربة خصبة، إلى متى تظلين عانسا، تغري.. تصرع النبض، ثم ترتد إلى نفسها لا قلب بين الحجارة والوادي.. قد ينبض، قد يخشع، بل قد يحس..

متى تملك إحداكما أنفاس إنسي لتحس انقطاع الأنفاس لمجرد نظرة ألقيها على جسد يقطع كالسيف، يبتر كل نساء الأرض.. على بسمات بخستني إياها.. على غضبها.. أعصابها المشتعلة على مد العمر.

لم تفسح لي برهة أضم فيها عشقي لأضمها، مع أني قررت سلفا ألا أفعل، ألا أدنو فما هي إلا ثقب أسود تسحبك جاذبيته بأقصى مما تقدر على المقاومة لا لشيء إلا لتلقي بك إلى العدم.. وما احتجت تيها بألوان على الموضة أنا الغارق في تيه بألوان الضباب..

لم يميز يوما أيهم أنا، الصعلوك من شلة تقتات على أجساد نساء بمقاسات متلاونات، أم الشاذ التي يمارس رغباته افتراضا.. أم أني الأستاذ الوقور، أم أني الرسم الذي شكلته زوجة صديقي؛ المتدينُ الذي يهاب الزنى فيعتصم بأحاديث النبي الأمي، هو قال سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله أحدهم رجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى.

أي ظلال لرجل يعيش في زمن تنازلت نساؤه عن الحشمة للرجال، اشتعلن عريا من جحيم، يعترضن طريقك عنوة؛ كم شابة جلست على سيارتي تنتظر قدومي لتنسج شباكها، لا تعلم أن لا أحد قد يتخبط بينها غير عزة نفسها، أما أنا فرجل أفترِس لا أفترَس، أحب أن أطارِد وأعشق تحدي الكبرياء، أما الجيفة فلا تغريني، ولاحتى هي تعزيني في لحظات اليأس.

أنا رميت مراجعي والمصادر، خلفت الدكتوراه ومشاريع البحث وألقيت بنفسي على دروب امرأة أطبقت علي فكين لا فكاك منهما، نظرة تعال اختزلت كل جبروت الدنيا في ثانية، وفي الثانية الثانية انزلقت رقة بسمة علقّت القلب، وأخذت تلوكه، والليلة أفلتتني، لم تقل أكثر من "سلم على قسمطينة" سحبتني عنوة إلى بيتها، إلى تلك الغرفة التي تختصر الفتنة في لوحة معلقة على جدار، وتختزل الثراء في مساحة تكاد تبلغ ضعف بيتي بكامل امتداده، فتحت علبة خشبية ترتاب لمجرد رؤية بالغ إتقان نقوشها، أخرجت مخطوطا أعرفه كانت قد أرتني إياه يوم دخلت غرفتها للمرة الأولى، لن أنسى أبدا موجا من شبق يجتاحك حتى تخاله يتقاطر من الجدران.

يومها أوصلتها فقد كنت سائقها أو أمينا عليها، مجرد حجة تسوغ لوالدها رصف عيونه حولي ليتأكد أني لن أشي بمالكة ثروة يقتات على فتاتها.

أومأت إلي برأسها لم تنبس بحرف خلتها تنوي تعريفي على أهلها، فلم تعرض أكثر من ألقاب بذيئة ألصقتها بهم زوجة الأب الأفعى أمّ الـ.. حسنا إنه أسوء من أن يتلفظ به أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة، في الأخير اختيارك مني كان صائبا، للمدرسة هيبة خاصة.

صعدنا مباشرة إلى غرفتها..

د

رفض اصطحابي بصورة عمود الرخام الذي اقتنيت قبل أسابيع قلة، تحت ضربة شفقة على روائياته السافرات، مددهن على رصيف بيته البارد بعز الصيف.. أرضية رخامية فاخرة، أي أحمق ينفق الرخام على شبر من العمر.

على كلٍ حماقاته أوحت لي بحماقة من نفس العيار، أنفقت وقت صلاته بالمسجد للتفتيش عن حبة دهشة تربك كبرياء كتبه، وجدته؛ الشكل مكعب الامتداد الأكبر لطوله، أما القاعدتان فبمقاييس كتاب، بل رواية، اللون قوقازي، والمادة نوع من الصخر ترفعت عنه قسمطينة، ولبسته القصور، لكن الغاية ما كانت القصر بل بيت زاهد بكل ملاذ الحياة عدى الرخام.

لم أنتظر خروجه أخذت تاكسي وسابقت شغفي برجل أحمق، إلى غرفته تحديدا سرت، وضعت العمود ليقابل وسادته بمسافة كافية لتذكيره دوما بتناسقنا وانسجامنا تماما مثلما تتناسق خطوط الرخام. ثم شكلت الروايات زهرا على العمود، زواياها تتدرج في الظهور حتى تحسبه ارتقاء نحو الأدب بأدب للأسف لم يحمل من الأدب الكثير، حسنا هو لا يستسيغ مطلقا نعوتي الجاهزة سلفا... الجاهزة أنوثة.. الجاهزة غيرة.. من نساء يحملهن إلى فراشه يقضي مع هن ليلة في عبادة للعري على الصفحات، ويحفظ لي مسافات أمان لم أطلبها، أبقتنا مشروع قبلة مؤجلة إلى ليلة أخرى، وكل ليلة تجر الأخرى.

ولا تأبه أيّ منهن بنبضات اضطربت كادت تفقد رشدها.

سمعت خطواته على العتبات، خففت الإنارة ليلحظ هدوء المحيط.

يدخل انهيارا ثلجيا، أرهقت الصبر صبرا عليه؛ طلبت إليه إغماض عينيه عله يهدأ قبل أن تهب عواصفي، استكان اقترب لحظها الأحمق أخيرا، جلس جواري على حافة سريره:

– جميلة حقا..

ابتسمتُ، التفتُ وجدتني أغرق في نظرة عميقة.. عميقة جدا، جسده التف حولي، لكنها كانت هناك حبيبة أيامه الخوالي، زوجة الصديق كانت تعبث بروحه، كانت ما تزال عروسا تمنحه قبلتها الأولى، تسرق مني لحظة واحدة، انقضت سريعا قبل أن تلبس العشق.

انتفض يصرخ بي أن لا شيء يبرر فعلتي، وأن كل ما آتي تفاهات، مجرد حماقات مذللة تتسلى بأعمار الآخرين.

- أحمق.. لست أكثر من غبي.. كيف يمكن أن يجتمع الغباء والكتب تحت سقف واحد.

حملت مفاتيح سيارتي، كانت ملتهبة، مازالت الحرائق مستعرة بها، ألقيتها على طاولته، قصدت عتبات بيته، أنا بشكل ما هواية العتبات المفضلة، يقطع الجسد المشتهى عليّ خطواتي. الأحمق يحسب أنه قد يوقف عواصفي، يجرب القبض عليها، أصرخ به:

- أبعد حقارتك عني..
- لست حقيرا ذرية، أنا لست حقيرا. تعرفين أن هذا من أجلك
- أنتَ تجاريه.. أنتَ أحقر منه..

كيف تقولين هذا عن والدك.. نخاف عليك، لن يصعب عليهم إيجادك -

دفعته وانصرفت:

- لن أعيش أسيرة الخوف، فهو لن يضيف إلى عمري ثانية، أم أنك لا تفهم ما تقرأ.. أم لا تحسن الانتقاء.

خسرني غادرت بمفردي، أو ربما أنا خسرتُ لحظة سكينة كانت غائصة في عمق العيون.

ياسر أكنت لأسمح لك بزرع رجولتك بالجسد أم أني كنت لأمحوك بخفض نظرة كما فعلت مع ناظم الذي كتم أنفاسه أربع سنوات ثم.. سقط منه فجأة احترافه صمت الجسد فتجرأ و..

يومها..

كنت بمكتبي أتلهي بعزف مقطوعة في انتظار انقضاء درس ياسر ليقلني، فتح بابي ولم أنتبه.. لا أدري كم قضى ناظم خلف ظهري يصغي لدفقات أناملي التي قطعتها ريبة وجوده التفتتُ انتفضت كصغيرة أفزعها الوحش.. اقتربتُ أستفسر، فاقترب أطبق يديه على ذراعي حاول تشرب أنوثةٍ لا تُمنح عنوة، دفعته لم تسعفني قوة الأنثى، ظل قابضا على الجسد يتصيد قبلة لم ينلها، اقتلعته قبضة أقوى هوت على جنونه.. ألقته أرضا وكادت تمزق جسده بركلات، ضبطتها رفقة امتدت سنتين، رفقة يأس من الحلم ذاته.

كان ياسر..

للمرة الثانية ألبس قناع الوحش وقد كان أفرد لي دور الجميلة...

ياسر أتغسل دمعة كل الذي نسبتني إليه. لم يرسو عند ارتجاف كل نقطة من يتمي، بل ألقى عليّ جمر نظرات صنفتني الوحش وقد خلتني الضحية.

صرخت بوجهه أيعز عليك الحقير، أم أنكم إخوة في العقيدة ذاتها، أنتِ السبب رد ببرود، رجل جارف كانهيار ثلجي، الحمقاء الوحيدة أنا إذ أصغي لرجل أدنى من.. مني..

- أنت بعريك، بسفور عفة لا تعرفين لها حرمة، أنت بلامبالاتك، أنت ببالغ زينتك.. أنت.. أنت جلاده.

- أحمق، لا يمكن لرجل مثلك أن يفهم أنها حرية شخصية، أما هو فيعرف.. ويعرف تماما كيف يحترمها، ويعرف أيضا أنه اخترقها وأنه سيدفع الضريبة باهظة.. باهظة جدا.
- ليس هنا ذرية، ليس في بلاد الحشمة، والحياء، ليس..
- أعدها على مسامعي بسرعة أقل علّي أستوعب عن أي حشمة تتحدث، أتراك أعمى أم أنك تحسبني حمقاء، عن أي حياء تروي، ما أعيشه هنا أسوء ألف مرة مما عشته بأمريكا، النساء يتاجرن بالجسد لتحصيل الحقوق.. أبسط الحقوق، أضأها،.. أنا على الأقل أدفع الرشاوى نقدا لا جسدا مثلهن.

أما الرجال فكلاب مسعورة، أما أنت الأحمق الوحيد في هذه البلاد فيتحرشن بك يحرجنك، تفقد صبرك أحيانا وتعنفهن.. ألم تفعل ألم يسئن إليك، سيأتي يوم تغتصبك إحداهن.. أحمق.

هزمته أو ربما انهزمت أمامه، منطقي لم يرقه، وكطبيب لا حيلة أمامه، يئس ولزم الصمت، وظل يلزمه، فقد كان ينزفني وما علمت، بل علمت.. وما ملكت إيقاف النزيف، ولا ملك هو لإيقافه سبيلا.

تجمد مكانه يراقب، مررت بنائبتي التي ما تزال تغازله وتنشر الإشاعات لتجمع العداوات حولي، أومأت برأسي لم أقل شيئا، ركضت خلفي عرضتُ عليها منصب ناظم ذكرتني بشروط العقد أن من يفسخه يدفع كذا للآخر.

- من قال أني من سيفسخه، هو سيفعل وعندها تستلمين المنصب؛

لا كلمة أخرى، ناظم كان دوما حبيبها.. يطفئ بجسدها نار اشتياقه لجسدي.. وكنت أدري

أنها فعلت به تماما ما تفعله الآن بالمسكين ياسر

ونجحت حيث تخفق الآن، ياسر في الحقيقة ليس مسكينا بل أحمق.

النتيجة الطريفة بعد يومين لا أكثر حصّلتها، تخلصت من الاثنين سكرتيرتي وناظم.. بصفعة مضاعفة كل منهما هدم الآخر وانتهت أحجية عدوين وحدهما دوافعهما المتناقضة. محوت بما أسماه ياسر خبثي أسطورة عشق كنت أطوره بصدر القسنطيني الأدن من الحب.. وابتسمتُ أعتصر دما فاسدا شرع يتجمع بالقلب، أيامه تعاديني بشراسة.

أ

لم يكن بلوغها صعبا كما تخيلت، البوابة حاجز منيع.. بالحرس والعيون، إذا تجاوزتها استمتع بالاندهاش على مهل.. وعلى مهل دخلتها.. تلك الغرفة الحلم.. غرفتك ذرية

كانت أوسع من بيتي كله، مضاءة طبيعيا.. الفتاة شاعرية، سرير لابد مستورد تقابله أجهزة تسجيل ضخمة، قد تشعل زلزالا إن هي شغلتها، إلى جوارها نافذة تشغل الجدار كاملا تنسكب على زجاجها طبقة رقيقة من الماء ملون بأضواء لا أدري أين ثبتت، ولا عرفت إلى أين ينتهي الخرير المرهف. بالجدار الرابع بابان يؤديان حتما لغرفتين أخريين، وخزانة صغيرة منقوشة بعناية مملة بها عدد من الكتب المنظمة بأمية مطلقة، امرأة لا تقرأ لا يمكن أن تعرف أن الكتب تبعثر لا ترتب.

أحضرت مشروبا وجلست على كرسي طويل أضنه مخصصا للاسترخاء، المغنية المسكينة تؤرقها هموم أمة على حافة الضياع بفضل مغنياتها المحترمات فوق العادة.

حادثتني برقة كأني ضيفها، كشفت لي بعض أوراقها، أرتني لوحة لن يمحوها الدهر من ذاكرتي، تخفيها في غرفة صغيرة بها بعض الآلات الموسيقية العتيقة جدا، رفعت بصري أو بصيرتي.. أو إرهاق عمر بكامله لتقابلني صورة على الجدار يتدلى منها شريط حريري كتب بالصينية، أتعرفين مني معنى الضياع؛ أحسست أن روحي تفارقني تستقر بين ألوان اللوحة، وتقاسيم هذه الفاتنة، ربما ما عشقته فعلا هو اللوحة لا دوريا.

لا أعرف كم قضيت من وقت مبهورا أمامها، قبل أن تنتبه الحمقاء وتقترب مني تقف تسند ذراعها لذراعي

- أعجبتك
- متى رسمت
- سنتان قبل ميلادي

خلطت أوراقي.. ليست صاحبة الصورة مع أنها هي.. حتما هي قالت أنها والدتها. معها حق إذ تخلت عن هذا الجشع واتبعت قلبها، أنثى بهذا الجمال تستحق رجلا يعرف جيدا كيف يشكل منها امرأة.. امرأة برحيق السعادة

الرسم يروي أنوثة متقدة، قد تكون والدتها فعلا فدوريا لا تكسر نظرتها بهذا الشكل الحيي أبدا:

- إنها أجمل منك..
- ما تقول إن قلت أنها أنا..
- صدقا دوريا.. أيكما

- أيمكن أن تشبهني أمي إلى هذا الحد..
- أنتِ.. حسنا الرسم أجمل منكِ..

ضحكتْ وما خلتها تفعل، ربما سخرت مني فأنا لا أملك عينا فنانة تقدر عمر اللوحة، لكني فنان كفاية لأحس فتنتها.

خلفتني أحاورهما اللوحة ودهشتي، حين قصدت الخزانة الصغيرة، أخرجت التاريخ.. حضارة أندلس التي سقطت منا سهوا في مجالس الجواري والمغنيات، كانت مخطوطة تحمل قصائد أندلسية، ماذا يفعل كنز الأجداد بين يدي طفلة فتحت عيونها بعيد أرضهم.

- إنه كنزي الصغير، خلفه جدي وديعة عند جدتي وهو يفر من البلاد.. اتهمه خونة صاروا دولة بخيانة الثورة، وقد كان عينها، هذه البلاد ساقطة منذ عهدها الأول.

كدت أزعزع منطقها وأخبرها أنها قد تكون هي الساقطة منذ عهدها الأول، لكني لم أفعل فقد تملت عشقا، واستهواني الغزل لن أشعل شجارا تضيع بينه النبضات

قبضت على المخطوط تصفحته، لا أدري كيف بدوت لها لكن تأملها شرع يشملها لحظة بعد لحظة، لتغرق بي نظراتها، اتسعت عيونها حتى خلتها احتوتني

جلست.. إلى جواري تماما

موجة عارمة من شبق تغمرها تمتد تكاد تبللني.

وجدتني مرغما على الرحيل قبل أن أدخل الجحيم طواعية

لم تقل شيئا، لم تقم حتى من مكانها لتشيعني، انتابتني موجة إحراج عارمة، وأنا أقطع الردهة باتجاه البوابة وأتقاطع مع أحد إخوتها، أعني واحد من ربائب والدها، استبقاني لشرب شيء وقبل أن يتلفظ

بعرضه طلبت قهوة حتى لا تتيه المبررات أمام رجل لا يفهمهـا، أو لا يعرف كيف يفهمها.

الشاب لطيف جدا لكن من عيار أقل بكـثير مـن عيارهـا، لم يتعلموا منها شيئا، رجل لا يتقن صمت البوح وثرثرة الفراغ، سـدد بدقة لكن حينما أكون الهدف لابد يخطأ

ما كان عليه تكبد العناء، أنا قرأت ما سكتت عنه اللغة، الشاب يتخذها حلما، أو هذا ما أوكل إليه من مهام عائلية جليلة. الشـاب لا وظيفة له غير ما يتشاغل به في أستوديوهات الآنسة المتسلطة حد قطع الأنفاس.. أو.. هذا ما صرح به.

للحظة خلتُ هؤلاء قادرين على اغتيالها، فقط ليرفعوا عنهم توترا دائم الاقامة على وجوههم.. سببه هي دون أدنى شك. هروبا من حاله المتشنجة سألت عن والدته أخبرني أنها تنظف أشجارا نحاسـية تـزين الطابق العلوي، بغامر من اللطف دعاني لمجالستها، رافقته أفـتش عـن أجوبة لأسئلة ليس من حقي طرحها. فما وجدت غير

امرأة ترتدي البراءة.. فيها بعض من حدة دوريا، لكنـها مـن نسائنا، تشبه كل نساء المنازل، اهتمامات لا تعدو الزينة، زينة البيت.. الجسد، وتدعوها ذرية الـ

إنه حقد أحمق لا مبررات له على من حشرهم القدر في حياتهـا ليبعدها عن أمها، وأنصاف الإخوة.

لكن لِم لـَم ينجب لها والدها إخوة.. أنصاف إخوة آخرين هنا لتتعلم الحب بينهم.

حصدت أجوبتي التي من أجلها رغبت بهذه السيدة المنـزلية، أو إن شئتِ الصراحة هي لقمتني الأجوبة التي أعدت سلفا، كانت جاهزة تماما لجعلي أحس فداحة ما أقترف بدخول غرفـة آنسـة متـهورة..

عبارتها اللطيفة دست سم العتاب في ترحابها بـــي "أهلا بضيفنا الذي نأمل أن لا يغادرنا أبدا.." قبلتني، أقصد سلمت علي وهـــي تـــردف مديحا تقليديا لقسنطينة وأهلها المحافظين على تقاليدنا العريقة، كانـــت واثقة أني أفهم مسرحيتها البديعة، غير أني لم أقبض على الخيوط فابنها جعلني أخال زواجه من دوريا حلم العائلة، وها هي أمـــه تـــوهني أني الزوج الحلم لفتاة متهورة، تابعت حديثها أمام ردودي المقتضبة حذرا، وشرعت تحدثني عن عشاقك دوريا، الذين لا تلقين لهم بالا، عن أبناء الوزراء والسفراء، عن ذاك الذي يطاردك في أزقة العاصـــمة بســـيارته الفارهة.. وعن.. عن الحرج الذي تسببينه لسيدة من الطراز القـــديم.. مرة تؤكد أني لن أفهم قلقها لأني شاب أيضا، ومرة تعـــود تقـــول أني قسنطيني عريق أعي جيدا ما تفكر به. لنكمـــل حـــديثنا دعـــتني إلى جناحها، حيث لا يدخل إلا الأقربون، قمنا مخلفين شجرة النحـــاس، اتبعها إلى حيث تشاء، فقد كنت أمام مغارة من العواطف النارية الـــتي لم أعرف يوما، شرعت أفهم حقدك دوريا.. ولم تر محدثتي ما كنـــت أرى. قبل بلوغ غايتها انتصبت قامة والدك بامتشاقها وشائبة الـــوهن الذي يلفها، لا أدري إن كان مثل زوجته مصـــاب بـــدائك أم أن داء آخر ينهشه.

ساقني للمكتب الذي تعارفنا فيه. عاصفة من نار سقطت علـــى دماغي وهو يسألني عن الفتى القتيل، سألني بعبارة صارخة الصراحة

- لِـــم قتلته ابنتي
- قتلته! من يكون الفتى؟
- واحد من الصبية المروجين، لا علاقة تربطني به، لم أعـــرف هويته إلا قبل أيام، محض صدفة، لكن لماذا قتلته.. لمـــاذا.. وكيف تعرفت عليه، هي لا تعرف عن كل هذا شيئا

- هي لا تعرف من هو، يمكنني أن أؤكد.. لا يمكنها خداعي لا سبب يدفعها، ثم هي ابنتك تعرف أنها لا تلوث يديها.

كدت أضيف إلى ثقافته، أنها نسخة أشد وأعتى منه، أنها تضع نفسها في رتبة الآلهة تكتفي بانتقاء المنفذ ثم تومئ لا تكلف نفسها حتى التلفظ ببضع كلمات.

عدت سألته من هو تحديدا، وهل هو صبيه؟

- إنهم صبيتنا يعملون لصالح العائلة منذ سنوات، لكن لا علاقة لنا بهم، أقصد لا علاقة مباشرة.

ترددت قليلا قبل أن ألقي إليه استنتاجي الأحمق كما كانت تصفني دوما، لكني فعلت، حزمت الأمر لأجلها.. فقط لأجلها، دنوت منه حد الإلتصاق وهمست:

- هل تذكر سيارتها كيف كانت، مهشمة من جهاتها جميعا.. ربما عليك قلب سؤالك.

وأنا ألتفت مغادرا صفعني وقوفها خلفي، أرعبتني رغم دهشتها. رمقتني بنظرتها الحاقدة التي لم تعد تخدش نفسي، صرت أعذرك من يعيش بين مخالب الاغتيالات المرتبة لا يمكن إلا أن يحقد.

لكنك.. طفلتي تحقدين على الشخص الخطأ كما هي عادتك. لم أعقب غادرتهم أخبر نفسي أني لم أك مقنعا مطلقا، على عكسهم تماما أقنعوني جميعا، بأني بالمكان الخطأ، وأنها الأسرة التي علي الفرار بعيدا عنها.. بعيدا جدا.

لكنها.. ذرية خلطت المعايير جميعا، شكلت منها مزيجا غير متناسق تماما مثلها.. امرأة العري الفائق التي تكره الأدب، فقط لأن الروائيات يخلعن ثيابهن على صفحات كتاب، كأنها لا تعلم أن ثيابها خلعت سلفا، أنها بالأصل لا تعرف وظيفة الثياب.

الحمقاء تسكنني، لا تبارح نفسي، الحمقاء تحتلني، لا فرار منها إلا بقرار استئصال أقنعتني به يوما بعد يوم.. ونفذتـــه دون أدنى مقاومـــة منها، كل ما اقترفت من الكلم "سلم على قســـمطينة" ثم ســـاقتني إلى عرس واحد من ربائب والدها، صعدت معها للمرة الأخيرة إلى غرفـــة تجتاحك لذتها لمجرد التفكر بدخولها، أخرجتِ المخطوط وضـــعته بـــين يدي تمثال حجري كان تحديدا أنا، تصدع التمثال أنـــتفض.. رفـــض الاستيلاء عليها

- لا أمنحك إياها، أنا فقط أودعها أمانة عندك، أما إن حصل لي شيء قبل أن أتمكن من استرجاعها فإنك الأحق بهـــا. لا أحد منهم يعلم بأمرها، اطمئن.

على عجل قبل أن تستأصل قرار استئصالها، وتصير واحدا مـــن أعضائي أو أنقلب واحدا من أعضائها.. رحلت، هذه المرة شـــيعتني، بلغنا جمهور المدعوين، ارتقت المنصة وغنت لي:

If you were mine,
I'd be your everything
and you'd be the only thing that I would ever need
If you were mine,
I would tell everyone
that you are the only one that I could ever want

فوحدي عرفت كم أحبتْ هذه الأغنية، وكم.. كم أحبّتـــــ.. أحبّتني.

ووحدي أيضا لم أعرف مطلقا إن كانت أدت هذه الأغنية أم أن أذني استعادت ذكرى أول أغنية سمعتُ بصوتها يوم حضـــرت، وكانت تغني لبعض المراهقين، كانـــت الأغنيـــة الأولى.. وكانـــت الأخيرة.

وكنت قد شرعت أمتص رحيقا مرا سكن دون سابق ميعاد روحي، صعب علي جدا الإقرار. ندمتُ.. ندمت جدا لأني حضرت مفتشا عندها عن ممحاتها، لأنظف ذاكرتي منها بها، واستعيد حياتي.

ندمت لأني تبعت خطوها بعد النظرة الأولى، ندمت لأني سمحت لعيوني بتتبع مفاتن كانت تعرضها بالمجان للجميع، لم تحرم أحدا من الجامعيين المحرومين من كل جميل في الحياة، بل محرومون حتى من التفكير خارج نظريات العباقرة الذين خدموا شعوبهم، أما نحن فلم نسأل أنفسنا مطلقا من خدم آلاف منا، لا أحد، لا شيء.. غير أننا عززنا دهشتنا إزاء الحياة وانبهارنا أمام كل جميل فيها، وفي المرة الأولى التي تخالف فيها القاعدة وتمتع نفسك بصورة أجمل من الجمال عليك أن تدفع الثمن باهظا..

أنت.. وجمالك الفريد، فهو لن يسلم من عقدك وعجرفة تصيبنا عدواها بمجرد استلام محضر تنصيبنا أساتذة جامعيين، ندخل جحيم إطارنا الاجتماعي الذي لم يهدنا أكثر من الموت، موت القلب، موت الجوارح، وموت الآخر قبل أن يولد، والأعتى موت الإرادة والاختيار

هل ستحذفين كل هذا مني، أم أنك ستعلقين بهدوء أساتذة المدارس العليا ونزوعك الديني الذي لم أجد له يوما أصلا ولا فرعا: كان عليك غظ بصرك وانتظار امرأة تناسب وضعك وتقدر فعلا جهودك.

لا مني.. أنتِ دون كل الآخرين تعرفين أن المرأة التي تناسب العقل لا تناسب القلب، وأن نساء القلب غالبا لا ينسجمن والعقل.. خاصة العقل الاجتماعي. أتوق جدا للتعرف على اختيارك أنت الهادئة بركانا لا يعرف أحد متى يحرقنا جميعا.

يبدو أنه سيكون عليك محو الكثير عزيزتي..

أ

وتشتد عداوتها اليوم وهو يحملني ذكرى، مجرد ذكرى لامرأة لم تقدر على إحداث الفرق الفارق، امرأة ترسبت على أيامه خطيئة تلو الأخرى، وسألته مع كل واحدة المشاركة، شاركني فيها جميعا ولم أملك جعله شريكا للعمر، لربيع عمر احترق وجثة الفتى الذي انتزعت شبابه بانزلاق بعيد الدرب، لم ألحظ المنحدر، فهوى فيه، وهوى عمري ليحترق إلى جواره..

يحي لمن تتركني لكوابيس لم يقدر غيرك على علاجها حتى الإمام.. ما حسبته إماما.. أو ما قالت زوجة أبي المصون أنه إمام.

ساقت انكساري وحزني إلى رجل وصف ماءا وأعشابا، لم أناقش مطلقا أسبابه أو فوائدها، قال الكبار أنها تشفي كوابيسي فامتثلت، فإذ هي تجسد كوابيسي، الحرائق التي كانت أوهاما اشتعلت بالجسد، حمى أصابت الجسد احترقت نقاطه الحساسة، ثم توسعت دائرة الحرائق.

حضر.. هو حضر دون مواعيد سابقة، كأن جرس الإنذار رن تحديدا بفؤاده.. ياسر لم يسعفني الباقي من عافيتي الاستفسار حول مغزى زيارته، ولا هو خبّر، دهشته أوقفته عمود رخام لا أنفاس تتردد به، سأل لم أعرف الإجابة ولا حتى خمنت، التفت إلى القارورات المصطفات على طاولتي، لم تكن تحمل أي علامة، قربها لأنفه صرخ بي ما هذا، وما أفعل بهذه.

سألني إن كنت مجنونة، عاصفة غضبه لم تك كافية لأفهم:

– الإمام... إنه عمل إمام

كنت راغبة بتأنيبه لتدخله بشؤوني الداخلية، لم أقدر الجسد مرهق لا يطاوعني حتى للكلام، ها أنا أحظى ببعض الصمت..

الصمت حظ وناذرا ما كنت أحظى به، لو التزمته لـــوفرت علـــى نفسي خسائر بثقل عمر.. خسائري بنفس ياسر.

كانت المرة الأولى والأخيرة التي أتقن فيها الصمت، أو ربما هو تمكن مني، وأفسح مساحات كافية لياسر حتى يتصرف بحياتي، يدير شؤونها، وأتفرج عليه، لم أعرف قبلا أن لسلطة الرجل طعم الأمان، رمى القارورات الجليلات بسلة المهملات، أو هذا ما خلته فعل.

إنه جهد أنثوي يهدر، لعلي لم ألتزم التعليمات، أو لعله قصـــد تطهيري من معصيتي بالمعاناة، لا تقنع أعذاري ياسر، ولا هي أقنعتني على ثقتي المطلقة برجال الدين المسلمين فقط، فأمي كانت لا تثق إلا بالمسلمين، كانوا صالحين حيث كنتُ، لكن في هذه البلاد لا يستقيم شيء ولا تثبت قاعدة، إلا غضب عارم لهذا الأحمق الـــذي لا أدري أي مسوغات يسوق لتدخله في حياتي، هل لاحظ تلذذي بحضـــوره وفرضه نظام الحماية علي.

لم أضبط منه شيئا، شغلته شرفة غرفتي عني طال حديثه الهاتفي، قد تكون هي، حبيبة الصفحات الإفتراضية...

دخل.. ثم خرج مسرعا، خلف انهيارا ثلجيا جارفا بمنطقة مـــا مني لم أك قد اكتشفتها بعد، قبل أن تستشيرني انتحرت العَـــبرات، ألقت بنفسها من العلياء التي كنتها إلى هاوية جسد يحـــرق حيـــا. أنـــزلت ستائر غرفتي في مناورة فاشلة لإطفاء حرائق أوقدها ياســـر داخلي كأن السطحية لم تك كافية.

تبا لك من أحمق، كيف سمحت لك بدخول مملكـــتي لتملـــك علي كامل أمورها وتستلم تسيير شؤونها دون أدنى مقاومة. هذا ما قلته وهو يرحل عني ذلك اليوم، لكني ندمت، فالصمت حكمـــة لم أملكها أبدا.

ليتني ما قلت من كل ذلك حرفا فالأستاذ عاد يحمل كيس أدوية، وضعها على طاولتي أخذ قلما وشرع يسجل طريقة ووقت تناولها، لكني:

- أحمق ماذا تعرف أنت عن الأدوية لأثق بك
- و ماذا يعرف إمامك عن الطب لتثقي به
- هي قالت أنه..
- أنهم صاروا موضة، وأنه زمن الرقى والطب البديل، وأن عليك مسايرة عصرك
- ماذا!! أنت لا تعرف عما تتكلم إنه..
- إنهم بالآلاف، لصوص يتاجرون بالمقدس، أغلبهم جهلة لا يفقهون حتى ما يرتلون.. ما بالك أين تعيشين.
- حقا..

لم أعقب تركته يشرح قاطعته، طلبت ألا يسجل على العلبة، أن يخبرني فقط سأتذكر فابتسم لا أدري لِم فقد كان غاضبا جدا. تمنيت لو أقضي المتبقي من العمر هنا أرقب نظرته وابتسامته واسترسال كلمات لا تنقطع أبدا بيننا، كأنها تتوالد أو كأننا لا نجد أكثر منها للذوبان كلٌ بالآخر، يقطعها دخول والدي الذي يسأل عن سبب انتظار ياسر له.. يحدث تصدعات لا تلتئم.

الأحمق كان يختصر الانتظار ليلقى الحقير، أيكما أحقر من الآخر، أنت ياسر الذي فُتحت أمامك أبواب الجحيم فتدخلها طواعية وتجبر نفسك على الإيمان بأنها أبواب الجنة، أم والدي الذي أعادني إلى بلاد الغرائب هذه بقرار محكمة، وهو يعلم يقينا أني لست من صلبه، ولا يأبه.. كل ما يريده هو الوصاية على أملاكي ليغسل بينها عائدات مخدرات زوجته المصون. أتريد أنت أيضا أن تقتات

على فتات موائدي.. أحمق لو سألتني رأيي لأشرت عليك بالفرار إلى أبعد ما يمكنك، كما لا يمكنني أن أفعل.

لم تسأل.. لكنك مارست الفرار وقد خلتني قادرة على تسجيلك باسمي.. لم تك يوما ملكي، طالما عشتَ بين أوهامها، تلك التي ما كانت لك، وحتى إن حصلتها، لن تكون بالبراءة ذاتها، فأنت ما تزال بريئا، رغم ترحالك المرير بين قلوب لم تعرف كيف تدخلها أو ربما هي لم تعرف كيف تستبقيك إلى جوارها حتى غروب زمنك، وأفول كل رغبة..

ياسر نحو أيٍّ من هن ترحل، إلى قسمطينة، أم إلى زوجة الصديق، أم إلى زميلتك السافرة افتراضا منى، التي ستقرأ ما كتبته لي، كتابك ملكي بكل حرف منه، وملكي بكل هامش وإغفاء عشق لم ينتش رغم بالغ رعايتي.

خبرني أينا التربة العقيم، أي منا عجزت الأيام عن صقل جليد نفسه، حتى يرى يقينا أنه بلسم جراح وقعت بالروح، أنت بنفسك قلت أن جراحي وقعت بالروح، بعد لحظات قضيتها رفقة والدي لا أعرف حتى اليوم ماذا قلت له وأنت تجره لخلوة رجولية، خلتها متنفس سافل، إذ أنت أعظم من تفاهتي الطفلية، عدت باسما قبل أن أعلق قلت أن شقيقك الأكبر طبيب، لم أكن صمتا كافيا لتدفق بوحك، ردي قاطع كما عهدته أو كما لم تتقبل يوما:

- ولِم لَم يتصدق عليك ببعض الفطنة لتدرس شيئا، أي شيء بدل تيهك بين روائياتك السافرات.

ضحك.. ضحك بصوت مرتفع وما خلته يفعل أين حميّة الأيام الخوالي والدفاع المستميت عن هن.

حول مجرى أسهمي ليسدد حيث يشاء هو، رجل قاطع كحد السيف، سألني سبب زيارتي الإمام، ما كان علي إخباره لكني خبرته عن أحلام مزقت النفسي.. عن نوم هاجر نحو الخوف، الإغفاء صار باهظ الثمن أدفعه نارا لم تنطفئ منذ ليلتنا تلك، النار تحرق الكبد تحرق العمر

.. – تحرق الروح، كنتِ محقة باختيار الإمام، لكنك أسأت اختيار الإمام

– ستسوقني إلى آخر؟

متهكمة فما عاد من أمل لجسد ونفس أرهِقا صبرا على الصبر، على مرارة صبر لا تطلب غير صبر أكثر، أنا القاتل فما قد يروي المقتول وأهله. وبدا ياسر صبرا من لون آخر.

– الأمر بسيط لا يحتاج إماما، فمن يعيش بين المسلمين يعرف أن القتل الخطأ يطهر بدية تسلم لأهل القتيل، وصيام شهرين بنفس تتقاطر ندما.. ثم نتحدث بأمور الأخرى

لم يخبرني أبي، بل لم يخبرني أحد، لم أعرف قبلا.. بل لم أعرف يوما أن بالدين حلا لعقدة سقطت على غير هدى بالفؤاد الخطأ، لم تعرف أي خطيئة تقترف.

سأفعل وعدته، لكن كيف أسلم دية لأسرة لا أعرف هويتها، ابتسم الرجل وعدني أن يسلمها بنفسه لهم.

عرفت أن الرجل ليس بالغباء الذي كنت أخال، وأنه ند لأبي الذي ما حسبت أن له على الأرض ندا، يخطط وينفذ دون أدنى اهتمام بانشغالات والدي، الرجل الذي لا ظلال له، سيأتي يوم يرسب هذا الأحمق ظلالا لأبي.

- وجدتهم إذا.. ولم تشفق على بالغ حيرتي، طلبت إليك العثور عليهم لأجلي، وجدتهم ولم تخبرني.. يا لقسوتك

لم يصدق أن تعرّفي عليهم قد يطفئ حرائق الجسد وبعضا من حرائق الفؤاد

ياسر.. وجلٌ الخوف.. متردد، حائر، فلا تزد خوفي أضعافا أخر. رجوته.. حاولت نقل عواصفي كلمات لمسامعه.. أليس رجل الكلمات.. وروائيات يحكين الحب والخوف، الخيانة والضمير، نساؤه السافرات ملكنه بالكلمات، وحبيبة الأيام الافتراضية ملكته بالكلمات، وشكلت منه عبدا أسود لكلماتها، لا يملك إلا السير على هدى الكلمات فما بالها كلماتي لا تشكل منه شيئا..

رجوته.. وعصيا بدا، صرخت به.. تعتر الصوت اللحن عند حواشي الداء، خانني.

عدت رجوته، أصبت الهدف وعدني أن يعرفني على شقيق القتيل إن أنا تعافيت، لكن بعد دفع الدية لا قبلها، فهو لا يأتمن حقد رجل متزمت على فتاة برقتي، أقصد رقيقة حقا، أم أنها بلاغة روائياته السافرات، فأشياءهن تعرف بضدها دوما.

ة

طريق طويل، وفكر أجهدته بحثا عن جواب يكون ببساطة السؤال، هل حققت هدف العطلة المقتطعة من عمر الدكتوراه؟

السؤال من بقاياك بنفسي.. مني، أنت التي لا تسلكين دربا إلا وقد حددت هدفه بدقة الرياضيات، ولا ترجعين إلا وقد حققته، أنت كابوس آخر شرع ينشر أجنحته على تفكيري.

أيمكن أن تكوني المرأة التالية بعمر رجل أتخم نساء من ذاكـــرة لا أكثر. أسأل نفسي كل يوم ما الذي ساقني لاحتذاء خطاك، كنتُ أعلم يقينا أني لم أفضل المدرسة العليا حبا بها بل فقط لأكون إلى جـــوارك، لكن غاية هذه المجاورة ما حددتها مطلقا، فقد كنتِ منشـــغلة بغـــيري تجربين الكتابة على جثة رجل آخر، رجل يلهب بعده أشواقك، لابـــد أن يكون افتراضيا، أنت المقيمة بالفيس بوك منذ عمر، ما أبقاك به غير حبيب لا سبيل للقياه إلا افتراضا. ما أزال أحفظ لهفة إدراجاتك:

"أنا على حواف الشفاه رعشة شوق"

"لا يبقى من العمر غير اجترار شوقه إليك

لا يبقى مني غير صمت غيابك"

"أنتظرك من علو شاهق للخيبة والوجع"

"صخب غيابك يفتت صمت كتماني"

أيوجعك لهيب الشوق الإفتراضـــي.. زمـــيلتي. فتـــت صـــبرك وكتمانك، ماذا فتت أيضا حجابك.. حياءك، أخلعـــت لـــه كـــل ذا واكتفيت بارتداء لغتك تلك.. تلك التي تغزل الرجولة أمنيات.

كنت أقرؤها فيحن شوقي إليك، للمس شفاه الأنثى التي تلفـــظ هذه الزفرات العشقية، وكنتِ.. مني كنت حاسمة الصد.

ملكك ببساطة العبارة، حبك المكتوم، ترى من كـــان حبيبـــك، واحد من أصحاب التعليقات الجمة الـــتي تنـــهال محاولـــة تضـــميد جراحاتك، أم واحدا من الذين لا يلاقونك إلا سرا على الشات، كنت تقولين أنك لا تظهرين متصلة إلا لي، ونـــاذرا جـــدا مـــا تظهـــرين للآخرين.. أكنت أنا سرك المكتوم إذن.. تبا

أي حب قد ينبض لامرأة ترفض فتح باب الحديث معك، امرأة لا تعرف أني أعرف عنها أكثر مما تسمح به أســـوارها العاليـــة.. أن

الصداقة الافتراضية التي جمعتنا قبل الزمالة جعلتني أقرأ نفسها حتى أعمق الأسرار، وأني أعرف أكثر مما تعرف عن معاريجها العاطفية، لغتها كانت تحكي نبضها بينما تحكي قصصها المتخيلة على جدار افتراضي.

ستقتطعين كل هذا من نص الرواية، واثق أنا.. أنت أجبن من الصراحة أنت نفاق اجتماعي مبسط. حسنا هذا إن قبلت بي وبرواييّ أساسا.. رواية دوريا.

منى سرتُ خلفتُ حبها وراء ظهري، خلفتُها تغني بكائية أخرى، ولا يفهمها غيري، لا أحد سواي تبلله العبرات التي تسوق النغمات، وصوتها السحر، امرأة من سحر لا يمكن أن ترى دفقات أنوثتها إلا وسلبتك كل سلطة كانت لك على عمرك، استوطنتني تماما مثلما تفعل مدينتها، وهاجرتُ بعيدا خلفتها لأجدها تستوطن كل شبر من النفس.. وها أنا أرحل أحملهما بين أنفاسي، بين نبضاتي وآهاتي، وأنتهي عندكِ أشكو لوعة الحب لك، وخيانة ستشرع بها لن يطول وقوفها عند رماد ذكراي.

أيهما ستختار الفتاة العاصفة، أيمكن أن تقبض على نفسها عقدة الذنب فتختار السلفي شقيق قتيلها الذي يرتدي الدين مقصرا، أم أن عجرفتها الفارغة ستختار ابن سيادة الوزير.

الحمقاء تتزوج رجلا إن عثرت به على بعض مما يمكن أن يوصف بالرجولة، رجل يقطع طريقها فقط ليتفرج على جسد يبهر، يقطّع صبرك واحتسابك من العمر عمرا يرديك آلما، زانيا من نظرة أولى تتقاطع وإياها فتقطعك فتات عشق، أو ربما فتات لذة تبقى مؤجلة حتى آخر العمر.. تبا لك دوريا، تبا لمصادفة مرّغت العمر بأوحال اشتهائك، وتبا لي رجلا لا يعرف متى عليه أن يكون رجلا ليستأصل

حماقة التمرغ بامرأة لا يمكن أن تكون الزواج أو أي تفصيل من الغد، ولا حتى تفه عرق، ماذا فعلتِ بالباقي من فتات رجولتي، أمحوهما في غمرة انشغالك بمحو نساء ذاكرتي

هل تقدرين على محو ذاكرة السيد "س" ابن سيادته، أم أنه هوى جارف يسوقك ومئات إلى جوارك.

أنا وإن كنت لا أعرف عادة علية القوم في الحب والوفاء، فإني لا أتصور الزحف خلف الملايير يترك من العمر ما يكفي لتتبع النبضات وقراءة شفراتها، فهي مخاتلة غالبا، أم أنكِ أعتى من عادات القوم تفرضين قوانين جنونك. ألم تجعلي منه مجنونا يسابق الموت على طريق ملتو وسط مباني سكانية ومدارس، فقط ليبلغك ويقطع مسيرك بسيارته، وكنتُ السائق، فأصابني شيء من جنونه كدت أنزل أكسر عظام وجهه، بحركة سرية قبضتِ على ثوراتي أشرتِ إلي بالهدوء، خلعتِ ثورتي كما ترمين عقب سيجارة آخر الليل ونزلتِ قمرا أو صاعقة أو مجرد امرأة ككل النساء، لا تشبه أيّا من النساء، امرأة تعرض فتنتها، تلهب كل نقطة من رجولتك ثم تنسحب تخلفك غارقا في اشتهاء يائس لن تجني غير الأوجاع.

بادرته هي، اكتسحت اندهاشه:

- سأخبر سيادته أنك إرهابي طرقات.
- أرجوا أن تفعلي ليدرك أن عليه اعتقالك بأقرب وقت.

هو أيضا يملك مجاراتها، لسنا أكثر من ثلة حمقى متناثرين على أرصفتها، بل مكدسين.

- سيصعب عليه وضع أغلال بهذه اليد الفنانة
- إلا إن كانت ذهبية

- حتى لو كانت ذهبية..

خلعته كما اعتادت إلقاء أعقاب سجائرها، وعادت إلى براكيني، ألقت سخرية احتقارها وبنظرة خاطفة وأمرت:

- انطلق بأفضل ما لديك.

تصفية الحسابات عندي سريعة، التفتتُ حوله حطمت الجانب الأيسر من سيارته شوهته، أحرجتها التفتت إلى سخطه العاجز لن يملك بحاراتي فمازال غارقا في ثمالة أوقعته فيها امرأة من الحجم السلطوي، صارت مدينة له بسيارة قد تدفع ثمنها غاليا، تبا لهما كلاهما، فليتزوجا ولينجبا كائن بشحنة غباء مضاعفة.

فهو لم ولن يكف عن اقترافها خطيئة متباعدة، ليتني عرفت أين كان يختفي ليعود ويفاجئنا. كم امرأة كان يطارد عبر أزقة العاصمة، ومن أي عيار هن.

جنونه ما كان بجنون المسكين ناظم الذي حسبتُها دوما أسيرة نظرته، ناظم كان جدار الصد الأول بيني وبينها، هدمته بلحظ طاغية لم تمهل قوسه إعداداً ولا سهمه المسموم رميا. قطفتْ شغف عمر بـ... بنظرة، لم تكلف نفسها عناء تلفظ كلمة واحدة.

بأي ممحاة كان بمكن أن تمحوني، لن تكون نهاية حبٍ بل نهايتي. أي حب هذا الذي عنه أحدث، حب لم يبدأ بعد لتضع هي نقاطا متتاليات، علامات حذفه، إنها الخطيئة، لا شيء أكثر.

لا شيء أقل..

لا شيء آخر..

أنت خطيئة، الطبيعة ما كان عليها ابتداع كل هذا الجمال، أم أني وحدي أنا.. وحدي أراك أجمل مما يجب، أجمل بشكل يختصر كل نزق الرجال.

يختصر عمرا أهدرته أتعلم منطق النساء، لأكتشف آخر العمر أنه اللامنطق، اللاعقل، أنه ببساطة كلمة لا يملكها، بل لا يعرف حتى معناها الرجال، أنهن الكيد.

كاد لي كبرياؤها في زمن ما عادت نساؤه يعرفن للكبرياء من معنى، وكاد لي صمت جسدها، وأجساد غيرها تصرخ بك.. تصم آذانك، تدخلك أنفاق الجنون هربا من إثم يشرعن يرتكبنه قبل حتى أن تلتفت إليهن.

النساء... النساء.

ثم تأتيك الحبيبة التي كانت افتراضية تقول غدا أزف إلى صديقك فامنحني القلب، والعمر والذاكرة، وتستجيب.. فتأسرك، ثم تفيق على جسد ليس لك مع أنه بين يديك. المرأة التي علمتك الصبر قولا، جاءت تعلمك الزنى فعلا.

النساء.. منطق النساء

أما الأحمق فقد صدق، بكل نقطة من الروح.. من الجسد صدقت القول، فصمت الفعل كصمت فعلك دوريا..

أنا ما منحتها القبلة، ولا حتى منحتها النظرة التي أعرف وتعرف أنها حشرت في خانة الزنى. الكلمات ما عادت تساوي فقد انفرط كل الذي جَمَعنا.

لا

ها الدروب تشرّع لي الفرار، وها أنا أقف بين يديك مني، أحاول ترجمة ابتسامتك التي ما عدت أعرف لحروفها مهجأة.

دخلتْ غرفة الأساتذة، وضعت كيسا ما في خزانة لا تملك مفاتيحها، وغادرت خطواتها تنفصل عن المكان تنأى بها عن الكون

بدلا من أن تربطها به، لحقتها نظراتي تبعت جسد الأطفال الذي تلبس أو هو يلبسها فهي لا تقرر هي امرأة تنفيذية لا تتقن اتخاذ القرار.

رميت جسدي على كرسي وانتظرت عودتها، ستتم اختبار الاستدراكي، وتعود.. يجب أن تعود لأخذ ذلك الكيس، حدثتني نفسي بفتحه وقراءتها بين تفصيلاته، لكني لم أفعل خشيت أن أضبط فتنفيني من مملكتها.. النفي أيسر قراراتها، بالأساس هي منفية بعيدا عنا، لن يصعب عليها عزل أحدنا إمعانا في عزل نفسها.

منى.. متى شرع كل هذا الخراب يحل بحيطتي منك امرأة ليست بالجمال الذي قد يغويني.

منى.. دخلتْ مرة أخرى، ابتسمت، حملت كيسها ودّعت بعض الجالسات قفزت أتبعها لم أتمكن من قول عبارة بسيطة.. بسيطة جدا

رحلت اختفت بين خطوات تسارعت وهي تسمع وقع ظلي خلفها، هربت.

ب

ربما لم يجد بي من الرقة ما يخضع غباءه المستعصي، لكنه على الأقل لحظها، وعرف أنها هنا، وأني امرأة، وأن الكون يقف عند اسمي وابتسامتي، أني وإن لم أخلع أثوابي على صفحات بيض، فإني يمكن أن أشكل شيئا، ما في مكان ما ليحتل مساحة بأبعاد ثلاثة داخله، أنه لن يملك الالتفات بعيدا عنها أنه.. سيعيش لها من العمر عمرا.

ياسر ما له الحب يقف عاجزا على أبوابك، ما بالها القصة.. الرواية لا تبدأ أبدا بيننا، ربما لأنهم دائما هنا بيننا، القتيل وأهل القتيل، وصديقك وزوجة صديقك والباقي من نساء هن لك لم أعرفهن قبلا، ثم هي..

الحقيرة زميلتك التي لم تذكرها إلا وأنت تعتزم الرحيل.

لا تخيفني النساء الصارخات الحضور، لكن هي ترعبني، المرأة السر تسللت إلى عمقٍ لم استكشفه قبلا جعلتني أخاف أن أفقدك، أنا التي لم أملكك يوما..

مني.. زميلتك، تقول زميلتي، تبا لك.. وتبا ألف مرة أخرى لها.. لأنوثة الافتراض

أيا كان السبب فإن القصة التي لم تبدأ قد انتهت، حمل أوزاره وعاد إلى قسنطينة، ونساء يسكنّ تلك المدينة لسن أهلا لها، بقيتُ بعيدة عنها مرة مُرّة أخرى، لكن حتى المرارة تختلف، هذه المرة أنا جاثمة على لائحة من الجراح ملتهبة لم تسعفه معرفة الأخ بالطب شفاءها. خلفها مشرعة على لائحة رجال لا يمكن أن يكونوا الشفاء ولا حتى أي نوع من العزاء، إنهم استنزاف صامت، قد يبلغ العمق.. قد يبلغ النخاع، بل قد يصل حد محو الأنثى من الذاكرة، لكنهم أبدا لن يتمكنوا من محوك، حبيب أيامي الخوالي.

الرجل الذي انتظرته سنتين، وقضيت شهرا أفر منه إليه.. رحل، خلفني لعذابات السلفي الذي دفعتَ له بيدك دية شقيقه.. الذي قتلت بيدي. ولم أصغ لنصحٍ سقته تباعا ولا أصغيت لرجائك مرارا ألا أتيح له فرصة اللقاء بي، فإنه قلت... لن يطيق صبرا..

هكذا قلتَ، بهذه العبارة الموجزة التي تختصر عمرا من الرجولة. أكنت رجلا كفاية لتتنبأ بأحلام الرجال.. أم أني أنا وبعد ثلاث سنوات من الإقامة بهذا البلد مازلت لا أتقن أبجدياته، ولا حتى أتقن التعبير عن مشاهده المعلقة أمام ناظري..

من الأحمق دوريا.. أقنعي نفسك إن استطعت أنه كان غبيا، كما أسميته دوما، وأنك ما كنت الجاهل الوحيد في بلد كل ساكنيه جهلة بدهاء شديد..

السلفي لم يكن إلا واحدا من الجمع، يشبههم حتى وإن اختلف شكلا، وأحيانا قولا عن كل الآخرين، الفتى يلعب لعبة الكلمات مثل الحبيب الذي أيقظ أنوثة كانت في سبات خلته يمتد حتى الأبد.

الفتى المتذاكي اختار اللعبة ذاتها لكنه لم يكن المنتظر، كان نقطة تتأرجح بدواخل الفؤاد.. الفتى يعرف أني أملك، ويعرف أني أقدر، ثم هو يعرف أني.. بل أنه نقطة وقوف في حياتي، أن القدر ساقه ليمتعه، لكن متعته كانت تُرسم شرخا على جسد شقيقه الذي أحرقتُ، أكانت دواخله، تغلي وتفيض غيضا، أم أن الرسم على الجثة أمتعه. لا.. أخاله استمتع، لكني كنت أحاول وأحاول محو الحرائق التي ألهب موت شقيقه بالجسد، أمحوها بابتساماته، الفتى كان كثير الضحك، على وقار يغلفه، كانت عيون السلفي تبتسم وهي تلقف حضوري، ونظراته تكاد تتلمس كل نقطة من الجسد، أحسها تمر برفق مجنون الرغبة، كما لم ترقبني عينا ياسر، الذي رحل قبل أن أتعلم منه، مع أنه حاول، الآن فقط أذكر كم حاول تعليمي، كم حاول جعلي أرى نفسي بعيون الـ...

تبا لك ياسر.. تبا لكل لحظة جمعتني بك، وتبا لكل كلمة قلتها، بل سمحت لك بقولها.

لماذا ياسر، لماذا أعود أذكرك كلما حاولت ربط خيط ولو رفيع مع غيرك، تراني أصبت بالعدوى منك، أنت الذي لم تملك يوما حب أخرى لأن الافتراضية الأولى كانت تملكك، هي ملكت عليك قلبك، لم تترك لي مساحة تكفي ولو للمكوث عندك واقفة. ماذا ستفعل بالأولى وبزميلتك مني أتملك أن تمحوها من ذاكرتك.

أجهدت نفسي، فعلا أجهدت نفسي، بمحاولات يائسة لتعليمه كيف لا ينظر حين ينظر لكنه لم يتعلم. تذكرت أنك دوما

كنت تطلب إلي تغيير أزيائي، فغيرت.. أنا غيرت لباسي الـذي لم أغيره لأجل أيٍّ كان، ولا حتى لأجل والدي، ولا حتى لأجلـك أنت... أنتَ حبيب الأيام الخوالي، الحبيب الذي لم يحب مني شيئا، ولم يحبني يوما، ولا أحبني ساعة.. ولا أقل من ذلك، لكنك كنت الحبيب.

أما هو فلاحظ وخالني لأجله أفعل.. يخـال الـزمن كفـيلا بتغييري، لأعيش عيشته، لأرتدي حجاب المسـلمين، كمـا كـل المسلمين، أنا المسلمة التي لا تعرف شيئا عن الدين وأهله، والـبلاد وأهلها، ماذا أقول له، بل لنفسي التي شرعت تفتش عنك فيـه، في كلماته، في مشيته، في ذلك الجنون الذي علّمتك حبيبتك ويسـوقه هذا الفتى عظات، أهو الهوى أم هي الكلمات التي لم تقل، والحـب الذي لم تمنح، شرعت أمتصه من الكون بأكمله، فلا يكفـيني، ولا يكاد يرويني.

مكانك لا يمكن أن يحتله بشر لكن الفتى لا يعلـم، أو أنـه لا يريد أن يعرف، هو لم يسألني حتى من أنتَ، مع أنك أنت عـرفتني عليه، وسقتني هدية ثمينة إليه، أمنحه كل ما يستعصي على رجل من فئته.

فتحت أمامه الأبواب المغلّقة، شرعتها على مصراعيها. كـانوا قد رفضوا منحه تصريحا بفتح مصنعه، رفعت الطلب بنفسي فقُبـل قبل أن يتم تداول الأمر، لكن الموظف خلف منصبه ولحق بـي حتى الرواق، فقد كنتُ وحدي أتفادى إشاعات الصحافة فلا أظهره أبدا برفقتي.

الموظف قال أن رجلي المتدين ورفاقه عملوا عند رجل أعمـال تركي كان الوحيد بالبلاد الذي يملك مصنعا مماثلا، وأنهم أحرقـوا

المصنع مرتين، وأعاد تشغيله، أما في الثالثة فلم يتحمل الخسائر، وها هم يشترون منه مصنعه بثمن بخس، وها هم يقتاتون على دم سفكوه.

– لِمَ تخبرني هذا..

– قدّرت أنك لا تعرفين... الآن صرت تعرفين

لم يضف شيئا ولا أنا فعلت شيئا، سخرت من رجل يحسبني بريئة، أم أنها لهجة تهديد ولم أفهم منها شيئا.

بلى فهمت.. أنه حان وقت الانسحاب من حياة الرجل الديّن، الرجل الذي يعيش على دماء شقيقه وسيده.

فعلتُ.. فأنت ما عدت هنا لتفكر نيابة عني، وتفرض علي تدخلاتك الأجنبية في شؤوني الداخلية.. ما عدت هنا ياسر، لم يبق لي منك سوى هذه الشقة الفادحة الخواء، أجلس على سريرك الذي لم يجمعنا يوما، أشم بقايا رجولتك عليه، أقلب بعض صفحات خلفتها إمعانا في تشويقي لعودتك. ستعود لابد تعود، لن تملك على الصبر صبرا، لا أحد يملك صبرا على ذرية...

لكن متى.. أخشى أن تضيع بين الدروب فلا تصل إلا متأخرا، ويضيع العمر، وينتهي قبيل صبرك وصبري

ت

تفتح الأيام أبواب الحلم، وتشرع تمنيك بامرأة سراب لا تقبض عليها الأيام، فهل تقبض عليها أنت الرجل الانهزام أمام كل صورة، وكل صوت للرقة، لتدفق الأنوثة.

أين شهد وعلقم أيامك دوريا، أين شجار لا تنتهي فصوله أبدا بيننا، أين نبض قلبي الذي كان يدوي لرؤياك يحسب نفسه صاعقة

مثلك، كنت أسمع رقصه مرافقا لرقص خطواتك وحواف تنوراتك القصيرات جدا، كانت فتنة، بل أنت كنت فتنة، ما عدت أعرف إن كنت فعلا كما عشتك، ولا إن كنت حقا عشت تلك الأيام فيك. أم أني غفوت وحلمت لا أكثر..

لو كان حلما، ما كنت بتلك الـ..

حسنا ما كان بالكامل ذنبك، فما أنت إلا نسخة عنه، عن قدر سطره، بل اختاره، بكامل إرادتك.. والدك.

حبيبة قلب لم يسمع نبضه قلبك، أو ربما سمع و لم يفهم، بل إنه فهم و لم يحسن التضحية لأجله.. بما كان يمكن أن تضحي امرأة وضعها القدر في خانة السيادة.

أيمكن أن تضحي بالسلطوية التي فطرت عليها، أم بمال جمِّع من مخدرات، أم بذلك البيت الذي تساوي غرفة منه ضعف مساحة بيتي أو يزيد. أهو لهو القدر أم تقلبات الهوى، أم أني كنت أحمقا كما وصفتِ، و لم أنتبه يوما.

أكنتِ المحقة وكنتُ المجنون و لم ألحظ.

ها نحن نمحو كل الآثام ونسقط في خانة النسيان، أما أنت فلابد أن تحسن عائلتك تزويجك، مع أني كنت أقرأ على تقاسيم والدك رغبة جامحة بأن...

لا أدري ما كان ذلك تحديدا، رغبة بمصاهرتي، محاولة أخيرة لإنقاذ الباقي منك، ما يمكن أن ينقذَ منك، كأنه لا يعرف أنكِ نسخة مضاعفة القوة عنه، أنك بدأت من حيث انتهى وأتممت المسير وحيدة، أنا لن أنسى، أبدا لن أنسى ما فعلت بناظم، الرجل الذي عشقك مثلي تماما، بالقدر ذاته، وبالطريقة ذاتها، لا.. ربما هنا افترقنا أنا أردت امتلاك قلبك، هو أرادك دفعة واحدة، دفعة كاملة، أراد الروح والجسد

والفؤاد، لم يقبل التقسيط، كأنه لم يلحظ أنك ما كنـــت معروضـــة للعشق أساسا، فكيف يمتلكك وقد كنتِ ملك غيره، ملكتِ أمركِ هو يعلم أنك تملكين على قلبكِ نبضاته، ترتبينها بمـــا يوافـــق حســـاباتك الدنيئة..

أملكتُ عليها سلطانا يوم كنتُ أحاول خلخلة نغماتها، من قـــد يجيب حيرة قلب لا يعرف أي موضع بلغ منك.

ذرية يا امرأة من بلور كل شيء فيك شفاف، مع ذلك لا يمكنني رؤية أدنى تفصيل، شكلتك الأيام بنتوء حتى تعتم صفاء من الطهـــارة خافت يختفي خلف عتمة حياتك العائلية.

ع

صارعتُ الرموش لتحظى بلحظة إغفاء بعد كل الذي سمعـــت عنه، عن الرجل المتدين الخلوق، ذلك الجميل قولا. ها هي الكلمات تقع دون إشعارات بالكارثة، لم تفدني بشيء تنبؤات ياسر بالأحوال الاجتماعية، أوحدهم الرجال يملكون قراءة الآخر أم أني وحدي أنا الغريبة، عن البلاد وأهلها.

ياسر قال أنها الموضة لا غير، كل شيء في هذه البلاد موضـــة الأئمة، الشيع، الأحزاب السياسية، وحتى الفرق الدينيـــة، وربمـــا الرياضية أيضا من يدري في هذه البلاد لا يمكن أن تطمئن لثبات أي شيء، أياتي يوم أصبح فإذ بـــي موضة أيضا.. لا لن يأتي.. فقد ولى، أنا كنت موضة لما كانوا يستوردون أغنياتي، أما وقد صرت أتـــنفس هواءهم وأسير بأزقتهم، فقد نسوا اسمي. مذ دخلت البلاد لم يتصل بـــي صحفي، ولا دعيت لحفل.. مع أني كنت قبلا جد مطلوبـــة.. على بعدي.

خطفت مفاتيح سيارتي التي مازالت تحمل الجثة، وانطلقت إلى السلفي أحاول ألا أقتل أحدا على مد الطريق الضيق المشوه التقاسيم. يلقاني عند مقهى من فئتي فهو يتلذذ بزيارة عالم ليس له، لكنه لن يقف عند الزيارات، سيخلع الأبواب ويدخله عنوة، وها أنا أخلع نيابة عنه البوابة الأولى، منحته التصريح، وخبرته أني لا أقدر على غير هذا لأن أبي سيكشفني وعندها يمزقني، ولم أخبره بدوافع أبي، فهو لن يغضب لأني دفعت رشوة لإداري، بل سيجن لأني دفعت نيابة عن أحدهم، لا يجب أن تتسرب أموال العائلة، ولا يجب أن يبتزنا أحد، صدقا هو حتى هذه اللحظة لا يبتز ما زالت اللغة رقة والطبع بسمة.

ابتسم مرة أخرى وهو يخبرني أن ما دفعته من دية لن يعينه على إتمام المشروع، وأنه يأمل أن أشاركه:

- لا أستطيع، ابحث لك عن شريك آخر، المشروع مضمون النجاح لن يرفض أحد مشاركتك.
- لا أريد شريكا، لا أثق بأحد غيرك

وقف التاريخ يجتر تاريخه، والدي تزوج أمي ليمتهن مالها، ثم خلفها وارتبط بالأفعى أم الـ... ليتم معها مسيرة التجميع لزينة الحياة الدنيا، وقد هبت عشرية الدم التي ضاعفت الطلب على تجارتهم، فأثرى أبي وزوجته.. وسكب كل ذاك بأرصدتي، لتغسله جمعيتي واستوديوهاتي، وعقاراتي..

وهذا المجنون يخالني بغباء أمي، هي لم تكن غبية، كانت مضطرة، فبعد أن ألصقت بوالدها تهمة الخيانة انفض أبناء العائلات المحترمة من حولها، خلفوها لأنياب لا ترحم، أنياب المجتمع وأنياب الجشع، وها هي أمي مطلقة، ثم متزوجة من رجل

وسيم حملها إلى كندا ثم انـــزلقا للولايات المتحـــدة، ثم منحـــت ابنتها البكر لزوجها الأول، لتضمن عودة ثروتها آخر الطواف بين الجيوب والأرصدة إليها، وهي تعلم يقينا أنها تفصلني عن أبـــــي البيولوجي.

ماذا أقول للسلفي الذكي أني خبرت لعبة المال والسلطة قبله، وأنها هدمت مني ما هدمت، أم لا أبارح عاداتي في التطلع الخـــاوي إليه، اليوم قرأتك يقينا، وقد كنت أقرؤك شكا.

عدت على عجل إلى مملكتي الصغيرة المستترة التي لا يعـــرف هذا الرجل، دخلت بيت ياسر، أحكمت إغلاق الباب كما أوصاني، جلست إلى ذكراه أقص عليها ما كان.

ياسر أهداني مذكرة، يوم تحرشت به نائبتي الجميلـــة، كـــادت تغتصبه علنا.

حسنا ذلك لم يفاجئني لأني رأيتها تفعل كل هذا بناظم، الفرق أنه كان يتجاوب من العمق، أما ياسر المسكين فاضطرب وتوتر وفر هاربا حتى أثار سخريتي..

يومها سخرت لكني اليوم أشعر برغبة جامحة بالبكـــاء، بكـــاء العمى الذي أصابني شهرا من العمر لم ألمح الفروق الشاســـعة بينـــه وبين كل الرجال، كلهم دون أي استثناء.

يومها غادر متوترا ولم أعقب، أذّن العصـــر، ركـــن ودخـــل المسجد، وغادرت أتمشى، عاد لم يجدني كعاداتي، اتصل ولحق بـــي، وجدني أحاول انتقاء كتاب قد يحبب إليه الجنس فالمسكين، لا يقوى على الاقتراب من امرأة.

لم أجد ما قد يفيده، لأن نقاطا صغيرة تجمعت داخـــل نفســـي تمنعني من فتح عيونه على غيري أرادته النقاط لي.

مد يده اختار مفكرة، دفع ثمنها ودفع بها إلي، سألته ما قد أصنع بها، قال.. لن أنسى أبدا قوله "اكتبي عليها فلربما علمتك الكتابةُ القراءةَ" ألهب غيضي أعدتها إليه قلت ارسم عليها أجساد النساء فقد يفتح الرسم عيونك على الحياة، فتحها وكتب على صفحتها الثانية: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... رجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى.

قرأتها، التفتت باسمة:

- ألا يوجد ظل لامرأة عاشت ببلاد الكفر حيث الهواء يزني، لكنها صانت نفسها؟
- ما الفائدة إن هي عادت إلى بلاد المسلمين لتفتنهم بسفور جمالها

فقدت الباقي من صبري على الرجل الذي لا أردي لِمِ أجاريه وأنا أعلم يقينا أنه أحمق، لا يمكن أن يعثر على نقطة ضياء واحدة بي، أن عيونه تُدين كل شيء مني، لأني ببساطة مطلقة عنقود عال، فأنا حتما حامضة.

خطفت مفاتيح سيارتي من يده، قبضت على يده سقته إلى السيارة

- اركب.. ولا تنطق

ركب ولم يعقب، ربما ندم أو ربما كان بقمة الرضا، لا أدري.. فأنا لم أفتش بين تقاسيمه التي أبدا لم تتواطأ معي لتبوح نيابة عن صمته.

بلغت الشاطئ نزلت وصرخت به أن ينزل.. من هنا من هذا الارتفاع يمكنه أن يرى بلاد الإسلام بوضوح السفور الذي لا ينفك يتهمني به:

- أينا العارية أنا أم مسلماتك...

لم يرفع بصره نحوهن، غمس نظراته بين قدميه وتجمد يصغي، وجنوني يصّاعد صرخت به أنظر.. انظر إليهن أينا العارية، أنا أم مسلماته، انظر إلى أجساد تكاد تتمزق سمنة وإلى أخرى غضة لم تتبرعم بعد، انظر إلى بنات مجتمعك المحافظ، وانظر إلى آبائهن وإخوانهن وأصحابهن، أتخاف على الرجال من امرأة ترتدي تنورة يفصلها عن الركبة شبر، ولا تخاف عليهم من نساء عجزت ملابس السباحة عن ستر ما عليها أن تستر منهن...

لم يطل إصغاؤه تراجع، اتجه نحو مقعد السائق استلقى مدد رجليه غير آبه، انتظر انطفاء نيراني التلقائي، لكنها لم تفعل.. سكنت فحسب، جلست إلى الكرسي المجاور، أنتظر انطلاقته، اعتدل بهدوء العواصف المنقضية:

- أنا أعرفهن جيدا، وأعرف آباءهن وإخوانهن، وكل المجتمع الذي يعشن فيه، أنا فتحت عيوني على متناقَضات هذه البلاد، لكن ما يهمني هو أنت.. وحدك أنت.. أنت أجمل.. أنت أرق

انطفأت نيراني، التفتت حدقت به، حملت المفكرة، ورميت بنظراتي بعيدا حيث لا يمكن أن ترقبها نظراته، انطلق.. بلغت بيتي، نسيت، أو تناسيت، أو أجبرت نفسي على إغفال كلماته، التي قد تهدم كل ما شيّد والدي بنفسي منذ سنوات.

لكن رحيله جعل كل شيء يتهدم تلقائيا، وها أنا أفر من أبي وعائلة شكلها لتكون موطني، ومجتمع معد مسبقا لأتألق فيه. ها أنا أرحل أيضا وألزم الشقة الحقيرة التي سخرت من عريها، وأفول زينتها، فإذ هي جنة المأوى، وها هي المفكرة التي حُفرت جرحا تنقلب بلسما، عليها أروي للحبيب البعيد ما يفعل بي كل قريب.

ق

جلست إلى الرواية التي سأدفع بها إليك.. مني، أحاول قراءتها، أو ربما كنت أبحث لها عن منطق ما، أسأل نفسي كيف سترتبينها، وأي عنوان ستختارين لها، وهل يمكن فعلا أن تقبلي بنا، أو بأحدنا على الأقل.

إحجامك عنا جعلني أركض خلف سراب لا أدري ما هو، ولا أي فائدة أرجوا منه، المهم أني أحاول لا أجزم.

اليوم غادرت فراشي مبكرا، تسللت قبل أن تلاحظ والدتي أن النوم هجرني، جلت بشوارع قسنطينة قبل الفجر، بدت هادئة لم تشبه عواصف دوريا، بدت شبيهة بك.. مني.

شيء منها يتقاطع وشيء منك، اجتمعتما أمامي صخرا يبتسم للقدر، وامرأة.. حسنا أنت لست امرأة أنت طفلة بسن مختلفة عن أعوام الطفولة.

لا أذكر غير ابتسامتك، خلتني ألمحها على الصخر العتيق، وقفت على الجسر أتأمل المدينة كأني أراها للمرة الأولى، أتعرف عليها مجددا كأني أراها قرونا بعد لقائنا الأخير، ما الذي بدلها كانت تشبه ذرية، لماذا تشتبه بك فجرا.

خبريني يا امرأة الاقتصاد الفائق للكلمات.

تنفست المدينة، سحبت بعض الراجلين كما كانت دوريا تسحب دخان سجائرها، فغادرت.. غادرتهما معا، المدينة والمرأة المدينة

دخلت حمامي تركت الماء ينسكب ليغسل إثم التفكير بك مني.

يا امرأة هي ملكية خاصة لرجل آخر، لكني لم أملك على الرواية سلطانا حملَتني، وسعَت بي للتفتيش عنك.. زميلتي مني

اتقيتها عند البوابة كأننا على موعد، أو كأن القدر سحبها، ابتسمت كعاداتها، ولم تنبس بكلمة، حاولت استبقاءها، لكنها كانت على عجل، أو على وجل، لمحتُ تخوفا في عيونها:

- منى كنا بالفيس بوك صديقين، ونحن الآن بالمدرسة العليا معا لكننا.. حسنا لم نعد كما كنا

ابتسمت: - هنا الأمر مختلف، وظروفي اختلفت أيضا

- ارتبطت..

لزمت الدهشة كأني اقترف إثما أمامها، سارعتُ بالاعتذار خشية أن.. ربما خشية أن أفقدها، وردها جفاء:

- والله يا أستاذ...

بترتْ كلماتها وكلماتي أيضا، وشيّدتْ بكلمة واحدة سورا بيننا، إذا كانت تدعوني أستاذا فعلي أن.. أن أقف عند حدود الزمالة المتحفظة التي لم أعتد منها، منى كانت بسمة، كانت كلمات متقاطعات، ولعب طفلة تهوى الاسترسال حتى آخر حروف اللغة، منى لَمَ تنكمش اللغة وتتراجع، عند اللقاء الذي ليس سوى وعد بالفراق السريع.

تحمل صمتها وتدخل قاعة الدرس ولا أملك على النفس سلطانا، أقابلها مستترا بجمع من الرفاق، أراقب درسها، أتقدر النفس التي افتضح انكسارها على التفاعل ومائتي طالب من النخبة، لا تمر عليهم كلمة إلا واستوقفوك عندها، طلبتنا مثل جمارك كلمات، لا بل هم جمارك أفكار.

أبحرت أرقب حركة جسدها، هي المؤمنة يقينا أن للجسد لغة، لغة جسدها بدت سطوة متأنقة، هي ما كانت هكذا.. منى كانت فاترة الأعصاب فائرة العطف ملتهبة ببساطة تربكك، اليوم انظر إليها، إنها..

تشبهك ذرية أن تكون نقيضا مطلقا لشخص ما فهذا يعني أنكما تلتقيان عند نقطة التضاد ذاتها..

ماذا يحل بـــي أتصيبني الهادئة بالجنون الـــذي لم تصـــبني بـــه العاصفة.

ذرية أين أنت تعالي راقبيها برفقتي، راقبـــي مني التي كرهتِها مع أني لم أكلمك عنها، إلا لأعلمك أنها ستكتب القصة التي هي تحديـــدا قصتنا، الوجع الذي التصق عنوة بقلبـــي.. بجسدي وأحيانـــا أخالـــه اقتحم روحي.

ذرية أتذكرين رجلا مر من العمر سريعا، كان شهرا، لا أكثـــر، واختصر الشهر العمر بكامل أحلامه.

دوريا أكاد أحضنك وأنا أذكرك، لكنها تشوش النفس تســـتحيل ستارا بيني وبين أحلامي، ملكْتِني على مد السنتين، وكانت مني هنـــا تجمد أحلامي، لكنها اليوم وقد لملم الحب فزعه وبلـــغ نهايـــة الأمـــل واستحال الأمل ألما.. ها هي تستأصل بعضا منك لتحل محله بصمت، بخيبة لا تخفيها إلا لتتفجر بين الأهداب، بين الشفاه.

مني لو أملك من الشفاه قبلة عابرة، لا تنثر وعـــدا ولا تشـــترط عشقا.. عابرة ككلمات عابرة لحائطك الفايسبوكي تخطينها لأوجـــاع يوقعها بقلبك عشاق إفتراضيون، أعمار مشاعرهم تحسب لا بالنبضات بل بكلمات تمر.. تنسى قبل أن يعرف الأدب لها سرا. مجرد قبلة زميلتي من شفاه لا تسعف الشغف ولو بكلمة..

ألا تعرف الكاتبة التي تدعي أنها تقرأ أفكارك، أن الصمت حرب استنـــزاف للصبر.. أنه إعلان عن ثورة يخوضها الرجال مجندين كـــل سلاح ملكوه، لتنتهي النساء صريعات وعد لم نلفظه، وتقولين زمـــيلتي الجسد يلقي الوعود..

صدقي زميلتي وعود الجسد، ووعود نظرة تلتهمك في ثانية تمسح كل نقطة من جسدك قبل أن ترفعي بصرك صغيرتي، وتلتفتي بثقل الانكسارات والفجائع التي تسكنك أو تسكنينها ولا أجد لها من داعٍ.

أيمكن أن تقفي إلى جواري دوريا لتراقبي زميلتي الملفوفة في شرنقة، لو تتبادلان الأدوار، لو أن المرأة القاطعة كحد السيف زميلتي، وهذه الغائمة المعالم تغني للوزراء والسفراء، تعاشر السكارى وترفع عن الأساتذة الجامعين، الأساتذة بمقاييسك دوريا فقراء، للمرة الأولى أكتشف فقري، راتبي بالكامل لا يقتني تنورة واحدة من تنورات الفتنة الدافقة.

كيف أتزوجك.. تبا لك.. تبا لك دوريا

لو أملك الصراخ بأعلى صوتي، لو يمزق الصوت القدر الذي مرغني بوحل امرأة منبتها وعيشها حرام، حتى الهواء الذي تتنفس حرام، بل الأرض التي تدوس تنقلب حراما.

ذرية لو لم تكوني... أي كلمة قد تسعف القلب، لو لم تكوني أنتِ.. فأنتِ لست المرأة التي يتزوج رجل يحمل سجل خيباتي.

إنها عقد الأساتذة الجامعيين أو ربما هي عقد الرجال أيا كانوا..

عقد الجزائري الذي لا ينكح إلا امرأة تشبه الأطر الاجتماعية، تشبه المجتمع الذي يقبض على أنفاسي، تشبه مني المتحفظة.. الملتهبة الشوق إلى... من مني؟

إلى السراب.. من تنتظرين يا صمت الجسد، وصمت اللغة، يا صمت يتفجر خشية.

يغادرني الرفاق، أمكث وحيدا قبالة قاعة تدرس بها زميلتي، أحمل أسئلة لن أطرحها وأجوبة لن أحصدها، وأسير إلى قاعة الأساتذة، أنتظر ملاما لن تلفظه فهي ككل الأساتذة حويطة، تدخل رفقة زميل آخر

للمرة الأولى أراها كما كانت أيام الافتراض كلمات متقاطعات، كانت تمازحه تستفز رجولة لا تدري ما قد تصنع بها إن استفاقت، عيونها تعانق نقاط متناثرات من جسده مبعثرة تائهة في هذا الرجل الأب، أهي غواية الشيب على حواف وجهه أردت قلبك صريعا، أنت التي قلت يوما أنكِ لن تغرمي بي لأني لست أشيب، ضحكتِ.. كنتِ دائمة البسمات

منى كنا أصدقاء افتراضا.. واليوم نحن زملاء وأصدقاء.. أي فرق تجدين لتنبذيني وقد كنت الأحب إليك.

ثم لم هو، لماذا اخترت هذا الأستاذ الذي ابتسم زهوا بامتلاكك ألقى علي تحية تشبه عقب سجائر دوريا، وعاد يكلمك، ليخلفك.. يغادرك..

جلستِ.. قشعريرة عبرت القلب..

حملت الجسد دنوت سحبتُ الكرسي المجاور لها فإذ يدها تقبض عليه، تفلته، تسحب الذي بعده، ترفع بسمتها تسترضي غضبا لم أجد وقت لأحسه بعد..

جلستُ حيث شاءت، التفتت وقد حنت رأسها تجر بسمتها، كانت ابتسامات منتصر، لم أملك غير الرد عليها بالمثل، هل أقول لها

هل أؤجل متعة التفرج على حيرتها، وأكتفي بلذة استفهام لن ترشه، وأسئلة لن تنثرها فقط لأن السؤال مذكر، وهي أنثى لا تمارس إلا المؤنث؛ إنها امرأة الإجابة فالإجابات أنثى، أما ما هو بين ذلك فهي لا تأتيه أيضا شديدة العناية بأنوثة لا تمتلكها، لا تعرف أنها طفولة لا تنقضي، ومن الأطفال لا يهم الجنس فهم أطفال وانتهى.

لكنها لا تعرف، من قد يوسع ثقافتها وهي تحكم لف شرانقها.. ستبقى محكومة بالبراءة المؤبدة.

- منى أين قضيت عطلتك؟

- .بمنتجع الدكتوراه، بقسم الأدب.. أتدري الخدمة سيئة لا أنصحك به مطلقا..

جرتْ بسمتها وضحكتُ لا أدري لم، فاقترفتِ السؤال: - ماذا عنك..

- .بمنتجع جعلني أدرك أني رجل فقير

صمتت لحظة، ثم أومأت إلي برأسها أن أكمل، أحسست أني استعدتها بحركة خاطفة اقتلعتُ الصمت وعدت الصديق، فهل أخبرها حكايتي فأخسر الصديقة وأشتري الرواية، أم أضحي بالرواية وأحتفظ بالصديقة

- أخبرتك أني سأقصد العاصمة لأدرس الموسيقى

- آه.. كل نهاية موسم تخبرني بذلك ولا تذهب

ثم استدركت كأن جديتي أوقفت تأففها، اتسعت عيونها دنى مني الشق العلوي من جسدها

- لاااا.. ذهبت إليها

- إلى من؟

- أووووف أنا أعرف أنك تريد صاحبة الجمعية لا الجمعية

تبا لك أنت أيضا مني:

- من أين أتيت بهذه القصة السخيفة

- لو قلت كلمة أخرى لكنت أقنعتني.. لكن كلمة سخيفة هي مرادف صريح لحقيقة، أيها العاشق

ليتك احتفظت بالصمت، ضحكك أغلق مجاري التنفس مني

- لماذا تضحكين

- كنتَ دوما تأتي لاهثا تخبرني أنك وقعت وأنك هذه المرة ستجعله مشروع العمر، وكنتُ أقول تريث، انظر للحب..

إنه مشروع مكتوم، لا نبوح به، إنه السر.. اليوم أقول لك تشجع لن يكون التقدم في هذه الساحة يسيرا، لكنه بطعم الفرح.

صمتت لحظة تراقب تنهدي وأضافت ممازحة:

- مبارك أريد الحلوى الآن لن أنتظر..

كأننا تبادلنا الطبائع استرسلت تحدث لا تسمع، ولزمت الصمت، حتى خلتها لن تفهم مع أني أكثر من يعرف أنها تفهم.. تفهمني

- ثمة مشكلة... اشترطت أمورا لا تقدر عليها

استمرت تكلم نفسها، تخمن، هذه هي صديقتي المجنونة لا تترك لك فرصة أن تكون، هي بنفسها تصنفك حيث تشاء هي:

- مشكلتك مادية إذا

لم تلحظ أنها هي.. تحديدا هي مشكلتي، لا لم تكن هي، كان ثمة حسابات عالقة حتى قبل أن أفكر بها، قبل أن تصبح مشكلة إضافية:

- مني هي ليست مناسبة لوضعي

صمتت غيضا، مع أنها طالما قالت هذا عن كل السابقات

- لِمَ تصمتين الآن

قلتها بكثير من السخط، كأني أدينها لذنب يعرف القلب أنها لم تقترفه، أعادت إلي نظراتها.. كانت فزعة كما لم أرها يوما، على أهبة البكاء، لم يمنحني انكسارها على نغمة صوتي فسحة لاستجماع عقلي، أو الباقي منه، وجدت يدي تدنو لتقبض على ذراعها الممدد إلى جواري، لكنه كان الأسرع انسحابا، خلفت قبضتي معلقة، ولغتي تجمع أشتات الاعتذار لتتبعثر أوراقها كاملة، وتنسحب نظرتها ويدها بخفة

- لا تعتذر لست السبب، إنها العبارة.. قاسية في حق المرأة.. ويكيلها الرجال جزافا

انسحبت خلفتني بمقعدي أتأمل حضورها وغيابها، كأن لم تكـــن هنا، كأنه سراب، نادم الآن.. أنا

عرفت أني سأضيع الصديقة ثانية، وأنحذر ثانية نحو جحر الزمالة.

أنت أيضا مني.. أنت وإن كنت نقيضا مطلقا لها

ما أنت إلا نسخة عنها... عن ذرية حبيبتي.

د

ميراث الأحياء بطعم الوحدة والخلود، إنها الشقة المأوى، المفر، الجنة، وسط حمام دماء أنا بيدي هاتين أرقتها، لا أنا لم أستبح دمـــاءه أنا أحرقته حيا.

ياسر قال أنه قدره وأني أداة في يد القدر، أيمكن أن أومن كما تؤمن، أيمكن أن أقلب تاريخي، لأنقلب نسخة عنك، يا رجلا يـــولي الأدبار في المعركة الحاسمة، ويخلفني وحدي أصارع ذاكرة لا أملـــك أن أصرعها، أيمكن أن أحظى بغسيل جارف لها، بمطر قسنطينة الذي لا يرحل مع الشتاء بل يلزمها متغزّلا حتى آخر الربيـــع، أو ثلجهـــا الناصع.. ثوب زفافها ذاك.. لمن كانت ترتديه كل سنة قسنطينة، ألا تدوم زيجاتك أكثر من سنة لتنتقلي إلى قلب وزوج جديد مع كـــل عام جديد، أم أنه الحبيب ذاته هيامه يتجدد ووعوده تتجـــدد كـــل عام، لِم لا يشبهك أبناؤك قسنطينة.

ذاك السافل لم ينثر وعدا ولا هو صبر على قدر، ما باله، أجاء يغسل قلبه من درن حبـــي بمائي.. بقلبـــي

أحرق القلب، ورحل.

أنتظرك ياسر، أفتش عنك بين رنات هاتفك، مازال زملاؤك من جمعيتي وعمالي يتصلون بك كما لم يتصلوا بـــي يوما، أي ســـلطان

للقسنطيني على القلوب، أما أنا فارتجاف للفؤاد يكاد يدوخني بين كل رنة وأخرى ليفجعني الصوت بل غياب الصوت، ما كنت أنت، لم تتصل.. لا عند وصولك كما أوصيتك، ولا أسبوعا بعدها ولا أسبوعين..

لم تتصل ياسر، أصدقا قالوا أن البعيد عن العين بعيد عن القلب. لم إذن لا تزداد إلا قربا من قلبي، تخالط دمي، وتتدفق بين أنفاسي.. أفتقدك ياسر

لو حرف بعدُ

لو نظرة بعد

لو لحظة واحدة بعد...

كنت سببا للحياة، كنت الحياة في حياتي، وطهارة روح أتعبها عطشها للحظة سكينة، وكنت..

أنت كنت سكينتي وفسحة من هدوء على كل الغضب الذي أنزلت بنفسي، نظرة واحدة تمر بتقاسيمك التي ألفت، تعيد إلي شعوري بالانتماء إليك، ما كانت مهمة الخلافات الهامشية، فأنت نور الفؤاد، ورحل الضياء خلفني أتخبط وسط ظلماء رجال يلتهمون فُتاتك بنهم من يجلس إلى وليمة، لا يعرفون أني ما عدت لأحد

وحتى إن عرفوا لن يهمهم، فلست الهدف لست.. أكثر من وسيلة.

ياسر أنت قلت دوما أني فتنة، ها أنت تملك الفكاك منها، وها أني لا أفتن أحدا، الفتنة لأشياء أخر..

آه ياسر أينا لا يقدر على قراءة جماعته، أم أن جماعتي ليست جماعتك..

اسقني صبرا على الغياب، أتمدد على فراش لم يجمعنا يوما، مع أنه منذ الأزل هنا، مررنا به ولم يقتنصنا.

أنتظر أن تطرق الباب تائبا، ولا تفعل ياسر، أحمل العود أساير القدر ألاعبه بقوانينه هو، فما عدت الملكة وقد ملكتني، أستعيد كلماتك، اكتبي عل الكتابة تعلمك القراءة، الأحمق كيف يكتب من لا يقرأ، ربما تعلمني الكتابة لونا آخر من الغناء، على المفكرة أخط لك كل تفاصيل يومي، حتى لا يفوتك شيء من غيابك، وأتعلم كتابة أغنيات لك، سأغنيها لك وحدك يوم عودتك

لن يسمعها غيرك، ولأجلك أهجر المال والأعمال، ثأر أمي، ووهن أبي، سرقات زوجته، وأطماع أبنائها.. بل أهجر رجال السياسة، وآمال البلاد، الجيش الذي يتخذ تجارتنا دعائم عقلية لجنديه، والوطن الذي جرح نبضك وأدخلك الوهن، لأجلك.. فقط لأجل نظراتك التي كانت تمرّر نظراتها.. تذوب تفنى في جسدي، ثم تنتفض تنقطع عنه كمن يفيق على فجيعة، صرت أعرف ما هي.

أحمق.. ستبقى حتى آخر العمر أحمقا.. وسأظل أتمنى حماقتك، وبالغ دهشتك.. ماأزال بانتظارها، كلما مر يوم ارتفعت أسوار وحدتي وقلاع أشواقي لتفصلني عن العالم فأمكث ببيتك، هنا أنا خالصة لك.. لكن أين قلبك ليذكرني.

ينكسر الفؤاد على صمت صوت العشق، لن تعود.. تشغلك جامعتك.

اتصل ياسر، قطرة واحدة من صوتك تروي عطش فؤاد انقلب صحراء.

ها الكتابة، ها النغم، وها أنا أطبخ لـــك، مطبخـــك الصـــغير يناسب مقاس أحلامي، أتذكر أني طهوت يوما لك، وأنك استدعيت ناظم، قلت الخطب جلل عجل، جاءك لهفة، كل القلوب تتآكلـــها اللهفة عليك

أفلا ينبض قلبك لأحد..

قدمت له الطبق قلت أنه قسنطيني، وأنه مـــن يـــد قســـنطينية أصيلة، جعلتني أحلم بالعودة لمطبخك، وها أنا أدخله وحيـــدة، ولم تعد هنا لتتذوق صنيع الأنامل القسنطينية.. الأصيلة.

لم تعد هنا لأطفئ بك نيران غيضي، وأروي شوق الفؤاد لكـــل من باعدوا الفؤاد.. قسنطينة.. أمي.. جدتي.. جدي..

بل شوقي لنفسي بالصورة التي كنـــتُ، أيـــام كنـــت أغـــني لقسنطينة، وتحتضن الصوت والنغم رغم المسافات الشاهقة بيننـــا.. قسنطينة خلقت للطرب، لتهز جسدها البهي على أنغـــام المـــالوف، قسنطينة خلقت لأسكن بها بيتك، لتجمعنا، لتهدهدنا

وافترقنا.. ما عادت تجمعنا.

بعتني للقدر بأبخس ثمن، لا لن تبيعني، أعلم أنـــك تعـــود مـــذ غادرتني لم أفقد ثقتي بك، أعرف أنها ضائقة وستمحوها الأيام، ويأتي يوم نضحك منها

ياسر سر القلب أنت وصفاء الروح أنت.. فأين أنت. علـــى العود أرتبك نغمات، وعلى المفكرة أرصفك كلمات..

تلمع بالفؤاد أفكارك.. أنت تعرض روايتنا على زميلتك مـــني، أنا سأعرض عليها قصائدي ومذكراتي، ويوم تعود ستجدها بالنفس الذي تحب.. باللغة التي اخترت لنفسك، ستجدها كما تحب.. ياسر

لا أبخسك يأسي ولا آمالي.. أهو اليأس أم الأمل..

ما عدت أدري، إنها وعود.. أو رشوة للقدر.. ما زلت أذكر هذه العبارة، خلتني ما قرأت روائياتك، بلى فعلت.. لكنك كنتَ أعمى عن مواضع الفتنة، وعمياء بغيريّ كنتُ..

لكن صفعات غيابك تعيد إلي فطنة الحواس.. ياسر

فتشت عنها.. هناك في عالمكم الافتراضي، عثرت على اسمها بكذا موقع، إنها هنا.. تتسكع ليغازلها رجال افتراضيون، ليسوا مضطرين لرؤية تقاسيمها، ولا لتحمل مزاجها.. لا يرون منها غير عبير الكلمات..

هي الكلمات.. عبير الكلمات ما حببها لك.. أحق كعادتك.. لا جديد

قررت أخيرا، أنشأت صفحة جديدة على الفيس بوك وطلبت صداقتها.. اسمي الافتراضي راقها.. قبلتني صديقة

و..

شرعت أتسكع أيضا لكن على صفحتها، كانت تندب حظها.. أعني سوء حظها

Mouna Bechlem

أينا المكتوي بنار إعيائك أنت المدد في فراش غيب الوعي أم أنا المحترقة بتردد أناتك"

حرائق فؤادها منثورة على بياض الافتراض، ورجالها يواسونها..

لا جديد ياسر كل نسائك متشابهات.. وحدك أحق حد الاعتقاد ببراءة إحداهن.. أحق أنت

لكن..

أيمكن أن تكون أنت المريض، الذي تشتكي إعياءه.

أكلمها على المحادثة الفورية فقط لأعرف من ذا الذي تحرقهـــا أناته، لباقة حرفها تخيّيل إلي أني أكلم مشرقية، ذكرتني بناظم، لكـــن نفحات قسنطينة لفحتني

منى

مساء المسرات غاليتي

لم أعرف ما أقول لها، هل أخبرها، أني أنا حبيبـــة حبيبـــها، أم أغازلها وأقول لها أنها تحب رغم سوداوية حرفها.. أنك كنت محقـــا حين اخترتها لتكون المرأة التي تكتشف قبل الثلاثين..

أنا قسنطينية مقيمة بالعاصمة

آآآآ رائع أنا بالعاصمة بعد أيام هل تحبين أن نلتقي

صعقتني.. أهو ترتيب قدري للفجائع. سحبت نفسا عميقا من سيجاريّ، ثم تذكرت أنها لا تعرف حتى من أكون

استعدت رشدي، طردت خوفك الجنوني علي ياسر ورتبـــت الموعد معها، يومان.. يومان فقط وألتقي امرأة ما قبل الثلاثين امرأتك الاكتشاف..

سحبت مفاتيح سياريّ، حدّقت بها مطولا، الجثة ما تزال تحترق على حواف المفاتيح مع أني دفعت الدية كاملة، بل وفتحت أبـــواب الأماني لشقيقك السلفي

شقيقك يرتدي بنطلونا قصيرا، ويطلق لحيـــة شـــقراء كثيفـــة متداخلة، أتساءل إن كان يملك من الوقت لترتيبها، أم أن انشـــغاله بقطع أرزاق الآخرين واغتصابها يشغله حتى عن ترتيـــب هندامـــه المتداخل..

ترى لم كان ياسر يتجنبه، ألأنه قرأ من النظـــرة الأولى شـــغفه بـــي أنثى تفتح أبواب كل مستعصٍ، أم أنه كان يخشـــى أن أديـــن بدين هذا الرجل، الذي أحرق مصنع المستثمر فقط ليستولي عليـــه، ربما خاف أن يلتقي قاتلان فينسجمان، في النهاية لست أكثـــر مـــن قاتلة، وهو قاطع رزق أي أنه قاتل بشكل أفظع...

سخيف أنت ياسر

راقب كيف أستأصله بنظرة واحدة وقبل أن أتلفظ بـــالحرف الأول..

بلغت بيت والدي الرجل الذي لا ظلال له، يستقبلني بنفسه، لم أره منذ.. لا أذكر منذ متى

– دوريا..

أتبعه لغرفة المكتب، أعرف أن التأنيب آتٍ لأني تخليـــت عـــن الأستديوهات والمغنين عديمي الموهبة لأجل جمعيتي. لم يـــذكر كـــل ذلك، بل خبرني أن حضرة الوزير كلمه بشأني، تعبرني رجفة، أبلغهم أمر السلفي الحقير

– ابنه يريدك زوجة، ما رأيك؟

– هل هو أحمق؟

قهقه أبـــي مع أنه ناذرا ما يفعل

– يكون أحمق إن ترك كل هذا الإرث يذهب لغيره.

دوريا كلهم لاحظوا أني لم أعد كما كنت، وأنـــك لا تهـــتمين لمالك، لابد من الاعتناء بهذه الثروة قبل أن تنهبها... اختاري هو أو ربيبـــي ذاك.

خرج لم ينتظر الرد، هي الثروة إذن..

من سيدير هذا الكم الهائل من المال بعد الرجل الـــذي لا ظـــلال له.. فأنا – الوريثة الوحيدة – منشغلة بالغناء، أو البكاء على قسمطينة

وصار لزاما تأمين أمين جديد على ثروتك أمي

إنه وقت عودتك لتلعبـــي دورا انتظرته من العمر عمرا

تعالي أمي..

فياسر أستاذ الروائيات السافرات لا يحسن عد رأسمالي

أشعلت سيجارة، جلست على مكتبه، حيث اصطفت قـــارورة النبيذ وكأس ممتشقة الرفعة، وكتاب مفتوح على صفحة من خطيئة.. واثقة أنا

أخرج خيط دخان من بين شفتي وأبتسم لغياب والدي

لقد نسيتَ الاختيار الثالث السلفي الذي لا يرغـــب بغـــيري شريكا..

هو الأنسب أبـــي، هو نسخة عن ماضيك أبـــي

أحملني إلى غرفتي أعزف لغيابك ياسرIf you were mine

هذا النغم الذي ودعتك به ليلة عرس ربيب أبـــي الأكبر

هذا النغم الذي استودعتني بين حروفه، حتى كُتبت لي قدرا ياسر

جميعهم يملكون من الشغف.. من الجرأة.. من العشق ما يجرهم نحوي إلا أنت..

تملك ما لا يملكون جميعا.. شغفي، عشقي غير أنها تجرك بعيـــدا عني

ياسر.. مشتاقة أنا.. مشتاقة لك

وترش مني ذكراك على لهيب الشوق فيجن يحرق القلب

هذه البريئة حد السذاجة جرتني إلى المعرض الدولي للكتـــاب، كدت أختنق وأنا أجوب رفقتها أروقته بحثا عن روائياتك السافرات، هي مثلك تنفق العمر بحثا عنهن

- منى
- عيوني.. هل تشعرين بالملل
- أعلم أنك هنا لأجله.. لكن..

غريب.. بل مريب الشبه الذي بينكما

كأني أمامك ياسر أكلمك

منى نسخة ثانية عنك، الفرق الوحيد بينكما أنك أحمق بينما هي ساذجة.. ساذجة بشكل يثير الريبة. تركت معرضها وخرجت معي للتسكع لكن على أرصفة عمري، هي فنانة بالتسكع، ولجت أزقتي السرية، تفتش عن بقايا رجولتك التي لم أملك يوما، بصريح العبارة ذكرتك، سألتني إن كنت أذكرك..

كانت تسميك يحيى، لم يربكها أني أسميك ياسر

أيهما أنت ياسر أم يحيى

ترى كم اسما لك.. كم هوية.. كم وجها قد تكشف يا رجلا ما عدت أعرف عنه أكثر من خوفه علي، خوف مرضي أصاب زميلتك.. امرأتك الاكتشاف

أخذت تلفني بشرنقتها، تأسس لها عرشا من نور بالقلب، أنثى تَحَب من الحرف الأول هكذا وصفتَها.. ابتسمت قالت أن الملائكة تُحِب دون حدود

أين عنجهيتك ياسر، أين نرفزتك، أين جنونك

زميلتك.. أنثاك الاكتشاف تصفني بالملاك، يا من تحسبني شيطانا

فتحت لها مغاليق القلب خبرتها أني.. أنا

ابتسمت قالت قرأت هويتك على صفحتك الافتراضية، بل كنت بانتظارك، هل أدهشتني.. لا، أعلم أنك كلمتها عني.

رويت لها عن زيجاتي الملفقة، بعد أن راعها إلحاح السلفي في طلبي كل لحظة، تحرجت خالت نفسها تؤخرني عن مشاغلي.. فسقت لها أحاديث رجال يرمون صنارة للقلب لتعلق بها الشروة سهوا. ضحكت.. فتحت عيونها كأنها تقرأ رواية بوليسية

وما كانت تقرأ غير تقاسيمي، ربما قرأت دون أن أمنعها صفحات الشوق والحنين

مني.. بهذا الوجه سؤال، لكن التقاسيم لا تجرؤ على طرحه.

سقتها لشقتك لترتشفك على مهل، وهي تلج تبدلت ملامحها، كل شيء فيها تغير حتى براءة وجهها سقطت

اعتلتها الرغبة.. إن كنت تخالني أمية فأنت أحمق

هذه الفتاة لما تنفستك بين أشيائك تفتحت شهوة ما فيها، ربما اختل نبضها كما يختل نبضي في كل مرة ألج

ر

كعادتها.. اختفت زميلتي

وخلفت لي سؤالا مرهف التقاسيم، أين تغيب هذه الطفلة، ترى هل تختفي لتلعب بتراب الحديقة الخلفية كما يفعل كل أطفالنا... أطفال الأحياء الفقيرة، فقد اكتشفت أخيرا أني فقير. أما أطفالهم.. أطفال من وزنك ذرية لا إخالهم لمسوا التربة يوما، ولا تلمسوا شيئا.. لا أدري كيف تكتشفون العالم حولكم، ربما بمجسات خاصة

هي المجسات التي كانت تعين ابن سيادته على العثور عليك ساعة يشاء

تبا لك.. تبا له.. تبا لكل لحظة أنفقتها على مشروع محوك من القلب والذاكرة. فما حصلت غير أسباب إضافية لمحوك، أما الممحاة فنقشتك جيئة وذهابا بينما تمر بك لمحوك.. تبا لك يا قلب

وتبا لك مني أين اختفيت

ثم هل ترضين بالتحدث إلي وقد خرجت على عجل، وألقيت بي إلى حيرة لا معاني لها. ما الذي أزعجك وأنا أقترض عبارتك واستعين بها لأشرح لك

مني مرهِقة بصمتك أنت.. ومرهِقة هي بحدة ردودها

مرهقة كل امرأة مرت من الذاكرة، نساء عابرات لذاكرة مرهقة وقلب منغلق..

مني تلك فتحته غزوا، وأنت قد.. تدخلينه بعدها بقدمين حافيتين، ومعاركك موضوعة السلاح.. ما عاد على تخوم القلب حراس ولا.. ظل بمملكتي جيش

مني مرهَق القلب.. مرهَق الجسد

انتشلي بقايا الرجل الذي كنت

الرجل الذي أحب، اخرجي من بين فكي الصمت واجعلي لك فكين بنعومتك ذاتها تقبضين بهما علي. أجول بالمدرسة العليا، آملا أن أعثر عليها

أقرر.. أقف طويلا أمام التوزيع الأسبوعي للطلبة أفتش عن اسمك الأستاذة بشلم

كيف لمثلك أن تدرس.. يا لسخرية القدر

أخيرا أتعثر بك.. ألملم لغتي، وأخلع كل شك.. كل توتر

أقصدها، اسقط عني جنون الرغبة

تستقبلني بابتسامتها المعهودة

- منى

ألقي.. بكبريائك أنت ذرية.. ألقي إليها كلماتي ورغبتي بجعلها تخط عني روايتي

تبتسم: - بسرور..

من أين أتيت بهذه البساطة منى، مريحة جدا هذه السطحية التي ارتديت اليوم. كل يوم تختارين لك مزاجا جديدا، لا تكادين تشبهين نفسك.

تضرب لي موعدا بعد غد لما تحضر لتقديم محاضراتها، تشرح لي توقيت عملها، لم تنتبه لكوني أعرف سلفا كل ما ستقول فقد حفظته..

تستبقيني نظراتها التائهة في لاشيء، هكذا تمتد في المدى البعيد، تبحث عن كلمات تسعفها لتقول شيئا ما تكتمه، أو تبالغ في كتمانه، فلا تسعفها اللغة بلعبة لغوية توحي ولا تصرح..

أيسر عليها المسار أبقى إلى جوارها.. أقصد بقيت فقط في محيطها، فلا أحد يمكنه مجاورتها هذه الملكية الخاصة لرجل لا نعلم من هو

أسير برفقتها خطوات قليلات، فتعثر على المنفذ أخيرا:

- المعرض الدولي للكتاب بعد أيام
- أنت مهتمة..آه تذركت ستوقعين روايتك، مبروك عزيزتي
- ألست مهتما، بالمعرض لا أقصد روايتي
- حتى الآن مهتم بروايتي التي أحب أن تكتبي.. لا غير

تلتفت، تلقي نظرة عجلى تمشط أعماقي بلمحة برق، وبسلطة أبوية لا أدري من أين جاءت بها تلقي إلي مواعظها

- يحيى.. الدكتوراه أهم.

انتهت الزيارة.. غريبة أنت منى

كل هذا التوتر.. كل هذا الارتباك لتلقي علي بواحدة من مواعظك التي لا تخلف أثرا بالفؤاد، أم أني لم أفهم شيئا من تلك النظرات، هل أصابتني ذرية بعدوى الأمية، فما عدت أقرأ. ترى هل ستضطرين لتحويل عنوان روايتي إلى

كتاب إلى رجل لا يقرأ

أكنت أميا.. أيضا

ألم أحسن قراءة القدر، هل ألقى بحروفه علي، فلم أحسن تقبلها..

"كل شيء يتوقف على طريقتك في قراءة القدر، إن أتقنت قراءته استقامت لك الهناءة، وإلا.."

منى.. إنها عبارتك، أما عدت أحسن تطبيقها. حيرة انقلب العمر

أراقب انصرافها.. هل أعود وأطلبها لأسألها عن حبيبها السراب أم أن علي تأجيل ذلك لما بعد الرواية.. للحياة

؟

يمتص جسدها شبق هذا البيت، نظراتها تتيه فيه، تضيع بوصلة النبضات، وتنفتح صفحات الأنوثة

أنثى إذن أنت منى..

أنثاه الاكتشاف، الذي حصره لفترة ما قبل الثلاثين فتأخرت اكتشافاته رغما عنه..

تجول نظراتها تلاحق التفاصيل.. تقرؤك

لشحذ نظرتها أكثر أخبرها أني لم ألمس شيئا كل التفاصيل هي أنتَ، إلا عمود الرخام الذي رجوتك أخذه.. بل اصطحابي في شكل عمود رخام فأبيت

وها أنا أنتصب عمود رخام مهزوم أمام رجولة لم تستطع أن تكتسحني.. لا تقلق ياسر لم أخبرها أنك فاشل بالحب.. لا تقدر على تقبيل أنثى.. دعها تنتظر قبلتك السراب.. ربما للحب معاني أخر في عرف أساتذة الجامعة

أو الأصح أساتذة المدارس العليا، مساكين أنتم مجندون بغير أوسمة ولا مزايا

تجلس صديقتك أعني زميلتك فهي دوما تشدد أنكما مجرد زميلين، تتأمل هذا البيت.. ربما مساحته المحدودة بشكل فظيع، كيف اتسعت لاثنين بحرية تامة، ربما شرعت تضع سيناريوهات لتقاطعاتنا التي لم تحصل، ولتماس لم يكن، ولـ... وحتى حكايتنا التي لم تبدأ.. تقاطع تأملي لتأملها:

- هذا البيت دافئ الحنين..

دافئ الحنين.. لم أكن ساذجة كفاية لأفهم معنى دافئ الحنين، لكني قرأت شغف المكان.. فتنة العشق بين عينيها. تراها عشقت البيت أم أنها تعشق صاحب البيت، وتجد نفسها للمرة الأولى أمامك ياسر.. بين تفاصيلك

غارقة بالشق السري الغائر في التفرد.. منك

هذا البيت بشكل ما هو أنت، بانكفائك، بموتك صمتا، بروائياتك السافرات، بصلوات تمنعك قُبلة.. وبحلم غيبي نفثته في روحك أنثى الآخر، فصدقته واستمسكت به آخر قارب نجاة تمني نفسك بها

ياسر كانت ليلة نسائية، تختلف عن ليل روائياتك.. بشكل صريح، ليلة للافتراض كانت تفضل أن تروي لي عن تعبها الافتراضي، عشاقها وأمراضهم المزرية:

- الفيس مستشفى أمراض نفسية، حتى أن لونه أزرق
- أهجريه
- نافذتي على الجديد، تصلني الأخبار.. كل أنواع الأخبار بسرعة، ثم ييسر التواصل، لا تنسي عرفتك هناك، وعرفت يحيى هناك أيضا
- يحيى؟
- ياسر، كان يناديني شهد، بطلت روايتي فصرت أسميه يحيى، مداعبة لكنه أحب الأمر، فـ..

هادئة، بسيطة، عشيقته الإفتراضية، التي أتعب تواضع جمالها أعصابي عند اللقاء الأول لكني عدت وتقبلتها، ربما أحببتها، وما دخنت في حضرتها إلا سيجارة واحدة عند منتصف الليل، بعد أن نامت زميلتك كدجاجة منهكة.. ما كانت لها بل لغيابك فعند منتصف كل ليلة أتم طقوس احتراقي بك، وأطفئك بين رماد سيجاريّ الإخيرة، ومع أنفاس كل صباح أعود وأقتنيك مشروع احتراق في علبة سجائر جديدة.

أفاقت مناه باكرا تجولت بالبيت الصغير فتحت نوافذه، أطلت على شمس الصباح عانقتها، ابتهجت بجمال اليوم المشمس، جميلة هي سذاجة السذج...

كانت تجول بالبيت كأنها تعرفه منذ سنوات، بحرية أكبر من حريتي، استأذنتني، ألقت نظرة فاحصة على البيت، لم تكن نظرة فضولية.. كانت تودع البيت، شيئا ما من هذا البيت..

أشعلت لهذه الأنثى سيجارة وغصت أتأملها، إنها أغرب منك ياسر.

عشت بهذه البلاد سنوات ثلاث ما وجدت نفسي ترضى الابتسام لأحد، جئت أنت في مصافحة جريئة ملكت كلي، ثم جئتني طالبا فاتخذتك وطنا..

وإن كان جائرا.. وما تزال هويتي وانتمائي الذي أسعى إليه، بدل أن أملكه...

هي مثلك من المحادثة الأولى.. بل من الكلمة الأولى أحببتها، وعند أول اللقاء أمّن لها القلب..

وغدا.. غدا ياسر وقبل أن تغادر سأمنحها كلمة النبض..

الكلمات التي كانت سرية جدا، خططتها على كتاب اقتنيته لي بنفسك، لتعلمني القراءة، فما تعلمت غير التدوين، تدوين النبضات على بياض الصفحات.

وسأهديها الصفحات لتقرأ القصة.. قصتنا مرتين اثنتين قبل أن تعيد كتابة تجاورنا دون تماس، وسأشترط عليها أن تكتبنا دون تماس.. أن تجد لنا رواية منشطرة كما الأمس كان منشطرا.. أن تجعلنا جارين على الصفحات بلا تماس، بحرية تامة، ومساحة أمان كافية للاستمرار دون الآخر

فأنا اليوم قررت أن أستمر دونك، أن لا أنتظرك بعد اليوم..

أو الأصدق أنك جعلتني أقرر.. حين علمت بوجود المعرض وإعراضك عنك علمت أني شُطبت من قائمة نسائك، وأنك تتحاشى اللقاء الذي أرنو إليه..

سقطتَ من أعلى منعرجاتي نحو النهر الذي يتوسطني فجرفك ككل ما أرغب عنه حيث لا أعود أذكرك

وحدها منى ستذكرك.. وتذكرني

أسوي أثوابـــي القصيرة جدا وأرتب ما تخلف بعدها.. غريبـــة الكيفية التي اختفت بها تلك الكمية الهائلة من الكتب التي كانـــت مكدسة هنا أمس..

اقتصاد فائق للمساحات.. تماما مثلك..

رتبت شقتي أعني شقتك وجلست أنتظر ضيفي الذي نظفت لأجله هذا البيت من تلك الكاميرات التي زرعـــت بـــه دون أن تلاحظ ياسر.. أو ربما لاحظت فما كانت إلا مسرعا لشطبـــــي من لائحة نسوانك، وكعادتك لم تخبرني، بلى أخبرتني لكني كنت معتادة على أهداب جوسستها، فمـــا خشـــيتها لكـــني اليـــوم مسحتها.. لأني لا أريد لأبـــي الرجل الذي لا ظل له أن يـــرى ظلي، وما أفعل من ورائه، كما لن تعرف أبدا ماذا أخطط مـــن بعدك. جلس ضيفي بسرعة أخرج أوراقا وضعها أمامي بانتظـــار مقابلها نقدا

- هلا لخصتم لي..
- بمن نبدأ
- السلفي..
- له أخ مختف منذ مدة البعض يعتقدون أنه ميت لكن لم تقم له جنازة، وحضرتك دفعت ديته عن طريق أستاذ جامعي قسنطيني...

خطط وساهم في إحراق مصنع لرجل أعمال أجنبـــي أكثر من مرة مما دعا هذا الأخير لمغادرة البلاد

- هذه أعرفها ماذا غير هذا..
- سيدتي الرجل من أسرة تتجـــار بالمخـــدرات لمصـــلحة أسرتك، الأكفأ كان المفقود أما هذا فأقل نشاطا لكنـــه

مصدر دخله منذ سنوات طويلة، شقيقه كان على علاقة طيبة جدا بالسيدة حرم والدك.

- حرم والدي.. عشيقها.. تقصد؟

- رئيس عصابتها، أقصد فتيانها

فتيانها، لها فتيان، لم تستوقفني الكلمة طـــويلا، لأني لم أعـــرف معناها عمليا

التفاصيل الأخرى تجدينها بالتقرير المفصل

- ماذا عن الثاني..

- هذا الرجل لا يقيم بالجزائر بـــل يحضـــر نـــاذرا لعقـــد الصفقات ويغادر بسرعة

كان دبلوماسيا، مقامرا مدمنا على الكحـــول والمخـــدرات، وحصل أن خسر كل شيء في ليلة واحدة.. كما يحصل مع الغالبية.

الفرق أن والده سيادة الوزير لم يساعده ومنع كل أصـــدقائه وزملائه من مد العون له، عانى الكثير ستجدين كل ما حصل معـــه، ثم وفق بالعودة للجزائر. بعد أن فصله من منصبه.. أقلع عن كـــل شيء، وشرع يتاجر بالعقارات التي كانت ملكه هنا بـــالجزائر ولمـــا تماسك دعمته والدته حسب الوثائق وصار كما ترين

- كيف؟؟

- سيدتي أنه يتحكم بتجارة العقارات هنا وفي بلدان عـــدة وستجدين أسماء شركاته وجردا تقريبيا بممتلكاته

- طباعه

- لا يعرف عنه الكثير.. لا يقرّب منه أحد

يعمل منفردا، لا أصحاب.. لا جواري.. مع ذلـــك علاقاتـــه بالساسة متينة

هناك متابعة لتحركاته في آخر زيارة له.

لم يكن يحتاج ردا فتقاسيمي التي جفت من كل ثناء كانت أكثر من كافية ليعرف أنه خيّب ما علقت عليه من أمل، تبـــا.. في هـــذه البلاد لا أحد يقوم بالمطلوب منه

دفعت بعض ما طلب، غادر مسرعا كأنه يخرج من الجحـــيم، قبل إغلاق الباب عاد وجلس:

- سيدتي الكاميرات هنا وفي الجمعية ليست تابعة لوالـــدك، والرجال المرافقون لحضرتك أيضا ليسوا رجاله

كدت أقول لابن سيادته لكنه صعقني وهـــو يجيـــب قبـــل أن أسأل:

- إنهم رجال السيدة حرمه
- هي لها رجالها
- أخبرتك لها فتيانها.. عدد كبير من الرجـــال المخلصـــين، يروجون المخدرات، أقل من نصفهم يعملون تحت إشراف والدكم، لكن يعودون لتلقي أي أمر مـــن حضـــرتها، في المهمات الـــ..

أتـــممت المبلغ، حمله وقبل أن يغادر طمأنت قلبه قبل أن يشل نبضه: - نظفت البيت لا تقلق..

سيجارة أخرى لزوجة أبـــي الأفعى لها أكثر من رأس

أي بلاد هذه دوريا.. أي عباد هؤلاء

أبـــي الرجل- الذي لا ظل له -له ظلال من عصابات، وابن الوزير الذي خلته حقيرا يبدو أقل شرا منك أبـــي.. أن يكون لـــك عصابة قد أقبلها في النهاية لست أكثر من تاجر مخدرات مع أنـــك تمتهن الفن.. تمتهنه بحق

أما هي خلت عصابتها أبناءها.. فإذ هي أخطر مما خلتِ دويا.. أكان الإمام الذي كاد يسممني أحد رجالها؟ أتوظفين الأئمة أيضا عزيزتي؟

أكنت تنوين قتلي، أكنت تنوين الانتقام لرئيس عصابتك؟ رئيس عصابتها!! أكانت صدفة تلك الليلة أم... قتلته أم سعى لقتلي؟

تبا.. تبا

أي نوع من الأفاعي اخترت زوجة.. أبي.. لهذا طلقت أمي لأنها لم تتقن لعبتك يا رجلا بلا ظلال، لابد أن زوجته المصون تعينه كثيرا، مفيدة هي

مضيعة للوقت هي أمي، ابنة قسنطينة المرأة الحالمة التي عاشت تبحث عن العشق يأوي نبضها، منحتك مالها وما منحتها غير الضياع فضيعتها.. عش حياتك.. أبي

عشها كما تشاء.. فلي حياة كحياة أمي.

سيجارة أخرى للقلم وما سطر.. وأخرى للوهم إذ ينجلي.. بل لغبائي

نخب غبائك دوريا..

أرفع مفاتيح سيارتي على مهل وأقلع، لا هدف لي غير التسكع بالأحياء الرفيعة التي أدخل بتأشيرة خاصة جدا من رجل لا ظلال له..

أقلب الاحتمالات بعدك ياسر فما عدتَ عشا لأحلامي، من يسقط من العين يسقط بحركة عفوية من القلب.

بحركة خاطفة وجدت ابن سيادة الوزير يسبقني ويقطع علي الطريق.. مجنون

كدت أصطدم بسيارته لولا سرعة ردة فعله.. لم أتمكن من مغادرة شرودي للمراوغة..

وقبل أن أفيق من صدمة المفاجأة وجدته يقابلني مختطفة تقاسيمه المعتادة يسألني إن كنت بخير

أقابله بابتسامة معاتبة

- أ تريد قتلي..
- تعودت منك عرضا مختلفا.. هل أنت بخير

ابتسم العتاب على شفتيه: - من يشغل بالك ليضيع سرعتك

مرة أخرى أقابله بابتسامة مستنكرة، يسألني عن طلبه المعلق، ويطلب فرصة لارتشاف قهوة، ثم يشدد مازحا قهوة لا أكثر، بعض التغابي قد يفيد حين تجرحنا حيث لا يعلم الآخر.. كلماته

- أدعوك للغذاء.. ساعة تشاء...

ابتسم هو.. لا لم أقرأ شيئا على تقاسيمه غير أنه توقع أن أشاركه سيارته، ولوحت دون تصريح بالرفض، فأنا.. للمرة الأولى أخشى.. الجميع

إجاباتي كانت مقتضبة جدا، في الحقيقةلم تكن إجابات كانت طلبات

- أمر الزواج انسه الآن.. فقد أفقت لتوي على فجائع عائلية
- أووووف فجائع.. و.. عائلية
- ما سأقوله هنا ليس عائليا، بل صفقة غبية فأنا لا أفهم بالصفقات، ولم أفهم سر الصفقة بينكم وبين عائلتي التي كان يفترض أن تنتهي أو تبدأ بزواجنا

– هاي.. هاي اسمعي ذرية.. تلك لم تكن صـــفقة، بـــادرت بإرسال والدي لأني كنت مضطرا، أعمالي كانت مضطربة واضطررت للمغادرة سريعا.

خفف سرعة انقضاض كلماته: –خفت أن يختطفك غـــيري.. كنت سعيدا برحيل الأستاذ وخفت غيره فسرّعت الأمر لا غير تختنق العبارات، تخلف حرائق على امتداد سبيلها نحوه.

لم أعلق وأنا أكتشف أن الجميع يعرفون عني كل ما أحتفظ بـــه لدفاتري السرية، وأني بعد سنوات ثلاث في هذه الـــبلاد العجيبـــة أجدني لا أعرف شيئا عن كل ما يحيط بـــي، أيـــن كنـــتُ طيلـــة السنوات الثلاث الماضية.

أم أنها لعنتك ياسر تحل عليّ فلا أفتح العيون إلا على الفجائع

يمد الفتى يده يقبض أصابعي يضغطها برفق، تصـــيبني رجفـــة الخوف لا الرغبة..

– قولي دوريا ماذا أصابك.. لستِ بخير.. أقسم لـــك أن مـــا سيقال هنا سيموت هنا

– أريد بيع كل ما هو لي بسرية تامة، وفي مدة قصيرة أقضيها بقسنطينة ثم أرحل من هذا البلد، أطلب أي مقابل.. لكن لا تجـــبرني على الزواج.

– سأخرجك من هنا الآن حالا إن شئت، دون بيع أي شيء.. لا أخافهم

– يجب أن أمر بقسنطينة.. كتابـــي هناك

– أ تحبين أن أرافقك

– لا.. لا داعي. أستعيد مخطوطا يعود لعائلتي.. عائلـــة أمـــي وأغادر مباشرة.

ابتسم رغم جدية لم آلفها غلفت تقاسيمه.

لم تأثر بـــي شهامته مطلقا، ولا حركت شيئا مني وسامة لطفه، فقد شرعت أتعرف زيف البلد.. كل ما ينتمي لهذه الأرض زائـــف، حتى النبض.. زائف.

ونحن نغادر المطعم دنا مني سلم علي أوصـــلني ســـياريّ وأنـــا أستلم مقودي وأضع رجلي بدواسات أثق بها عقبـــت علـــى بـــالغ لطفه

- لا تعول كثيرا على قلبـــي.. فما عدت مغنية رقيقة
- أنتِ مراقبة دوريا.. من الأفضل أن تجدي مبررا عاطفيـــا للقاءاتنا..

ودعني بلطف فياض عكسك ياسر، أيها الأحمق الذي لم يحسن يوما جعلي أرق له. أعمى هو قلبـــي، بل أحمق.. كان الأحمق الوحيد بكل تلك القصة..

انطلقت أبحث عن منى، أعرض عليها كلماتي وشـــروطي و.. أضع مفتاح شقتك بين كفيها.. أطلب منها إيصاله لك.

خبرتها أني أنطلق نحو قسنطينة غدا مساء، عرضتُ إيصـــالها، لم تتردد مطلقا بل انفجرت بهجتها السخيفة هذه التي جعلتني أحبـــها، أحبها.. وأثق بها رغم زلازلي الداخلية.

منى قالت أنها اشتاقت لي.. وافتقدتني اليوم

كانت تحلق فرحا بما جمعت من مراجـــع لرســـالتها، ودون أن تدري عاتبت تأخرك عن المعرض.. وسريعا بترت عباراتها، التفتـــت تأملتها مليا

- منى أنت شفافة
- في عالم لا يفتأ يتلاون وتشتد عتمته.. دوريا

سريعا عادة تقطع كآبة اللحظة، ساخرة من أحزاننا.. من وعينا المتخلف قرونا.. من كل شيء بهذه البلاد. الغد لم يحمل شيئا يستحق التدوين غير توقيعي عقود البيع لابن سيادته، وطبعا لم يفتني ضمان حقوقي المؤجلة أبدا.. وعدت إليها..

منى لنحلق.. قسنطينة لابد تفتح ذراعيها لشجن توشح بالرعب

أ

الأنثى.. الزميلة.. الاحتمال الآتي للنبض

لن أكتب بعد الآن عن النبض حتى لا تعتقدي أني زير، وأن السياحة بين القلوب هوايتي. النساء محطات بحياتي.. أمر مجبرا بهن.. أرض لابد من اكتشاف صلاحيتها للإقامة.. وطن اختياري لا جبر فيه

النساء وطن لكنهن لا يعلمن، ولن يعرفن أبدا ما هن

منى.. تراك تعرفين

زميلتي التي تركلك بنظرة واحدة إلى أدنى درجات ترتيب الأحبة بقلبها، ثم تعود ترفعك لأعلاها على الإطلاق بابتسامة واحدة

منى.. مرة أخرى تخلفين مواعيدك

متى تحضرين.. أنتظر موعدنا، وتخلفين

أقرر البحث عنها، أتجه مباشرة للمدرج، هل أتأملها عبر النوافذ الزجاجية الكبيرة، لأحرجها قليلا أم أحترم نفسي، وأنتظر من نقطة حيث أراها ولا يلاحظني الجمع.. ما رأيك ذرية، يستهويني كثيرا إحراجها، غير أنها تغضب، ولا أحسن إرضاءها. ليتك هنا، لتعيشي معي زميلتي المزاجية الحادة والرقيقة في آن

أوفٍ لك ذرية.. تسكنين تفكيري

أبلغ المدرج.. لم تكن هنا. أسأل رئيس القسم عنها يخبرني أنها قدمت طلب غياب وتستأنف الأسبوع المقبل بحول الله

لوحت عباراته أنها لابد قصدت المعرض الدولي للكتاب كأنما يقيم مقارنة بين أنثى متقدة الإرادة، وبيني رجلا لا يسعى مع أنه يحتاج. عليها اللعنة ذهنيتنا المتخلفة التي تحشر أنفها فيما لا يخصها مع أننا دوما نتهرب مما يخصنا

وعليك اللعنة ذرية فأنت سبب مجافاتي للعاصمة.. لولا لعنتك التي تلاحقني لحظيت برفقة زميلتي، لكنا وضعنا لنا بداية ما بتلك الأرض المغرية بالعشق، هنا لا يمكن لأحد أن يحب أو أن يضع بداية ما لأي مشروع عاطفي

تعودنا أن نكون زميلين ولو بدرجة أصدقاء افتراضيين، لكنا ما تعلمنا كيف نلامس رغباتنا الغارقة بسبات أبدي، هذه مدينة تغري بالانتحار صمت.. كبت..

أنثى الكتمان المطلق.. ألف سؤال وسؤال أذخر لما بعد الرواية مني..

متى تكتب هذه الرواية، قد تؤجلين هوسي لما بعد الدكتوراه.. لن أسمح لك

اكتبيها.. اكتبيها سريعا، حتى تتحرر أسئلتي الشرعية الفضول

قد يزهر السؤال.. قد يرسم الغد زميلتي

مر الأسبوع.. وبعده أسبوع و لم تستأنف

و لم يعد يعرف رئيس القسم بما يجيب سؤالي الدائم عنك

بعد تردد يطلب مني الاتصال بعائلتها

تجتاحني نوبة لوم له.. للحظة أحسسته بغيضا لا همه غير مصلحته، ثم عدت راجعتني، قد يكون الحل الوحيد. لانتشالنا جميعا من جحيم الجهل..

لا اليوم ولا غدا.. بعد غد، إن لم تحضر أسأل عنها مسكون بسؤال غيابها.. غدوت.

تحبين إثارة حيرتي مني.. لأتشاغل عنها وعنك فتحت صفحات الافتراض التي لم أعد أحبذ، منذ جن تسارع عداد أصدقائك، مللت غيرتي وحيرتي.

فتحت صفحة الفيس وبريدي الإلكتروني وجدت رسالة بالفيس، غريب ليس هذا من عادات قبيلتي الفيسبوكية، ناذرا.. ناذرا جدا ما كان أحدهم يضع لايك أو يترك رسالة، شعرت بفرح مرهف، أحدهم اهتم لأمري، تخيلت الوجوه الضاحكة التي كنت ترسلين بدل بسماتك، فعدت ابتسمت. فتحت الرسالة.. كانت منك

نبضي يسابق سرعة قراءتي، ثم توقفت راجعت التاريخ.. كانت قبل سفرك

«مساؤك سعيد يا أنتَ

غدا بحول الله أسافر للعاصمة، سألقاها.. لم تكشف هويتها بعد لكني أحس أنها هي..»

من هي مني، من تقصدين، ليس دوريا، تبا لك.. يا لمصيبتي فيك مني

«و بعد لقائها سأكتب قصتك، وقصتها، سأحاول سماع الحكاية منها وسأكتبكما إلى جوار بعض، ملتحمان دون تماس كأهداب العين متجاورة بامتداد طولي، كل رمش مستقل عن الآخر، مع ذلك قد تتلامس دون أن تختلط، وفي التشابك جمالها، وأعلق كل هدب بحرف من الأبجدية؛ إذ تجمع الحروف تتكشف لك العين وصاحبها، وحين ترفع بالقراءة الأهداب واحدا بعد الآخر تكتشف الرؤيا، لتعرف ماذا كانت ترى كل عين وما كان يرى كل راء..

لتنبني مدينتي الروائية مشابهة لمدينتي الحلم قسنطينة" بأقواسها المتتالية تقف فتتراءى لك من وراء القوس الأول أقواس ملتحمة دون تماس.

فكر بهندستي أجبني بعد عودتي بإذن الله

سلامي ومحبتي

منى»

منى افعلي ما شئت، لكن عودي.. عودي دونها، لا تحضريها معك.

هيا اظهري كفي ألعاب الأطفال هذه، كبرنا ما عاد يليق بنا الاختباء لتحريك الآخر، أم أنك لم تعلمي أن الآخر تحرك منذ عمر وأنك من يكبح حركته

هيا عاودي العمل، اعتذري بأي شيء، تخنقني حيرتي التي ضاعفت رسالتك.

تصغي روحها الملائكية لندائي وتأتيني سريعا لكن.. على الصفحة الأولى لجرائد الصباح التي لم أقرأ يوما، تضعها بين يدي نائبة رئيس القسم ولا تحرك شفة، ألقاك على هامش خبر وفاة المغنية الأصيلة دوريا في حادث سير، "و كانت ترافقها أستاذة جامعية..."

- منى

صرخة واحدة.. وتتخطفني نهايتكما

ما أنا بعدكما..

غير ضربات سددتُها للحائط.. للخزانة.. للأيادي التي تلقفتني.. كانوا هنا.. زملاؤك كانوا متأهبين لجعلي أكتمك مجددا، لا يعرفون أني كتمتك لسنوات

منى.. قتلتك.. هي.. أنا

نحن قتلناك.. أنا قتلتك.. ألهبت فضولك و..آآآآه..

ضيعت في عمر الشقاء حواسي.. ودفنت إلى جواركما إحساسي

كنا سخرنا من الشخصيات المسطحة في واحد من لقاءاتنا الخاطفة، التي لم نعرف يوما أنها مختلسة من عمر الفقد، ها أنا.. شخصية مسطحة في رواية لم يكتبها حرفك المؤنث، ها أنا أقرؤني شخصية بلا نفسية ولا عمق.. مجرد تقاسيم مثقلة الحزن، لا أحد غير ميتتك تعرف ما وراء التقاسيم

تراني سأحملك عقدة ذنب، كما حملت ذرية ذلك الذي لم تعرف يوما أقتلته أم كان يسعى لقتلها. الغبية جرفتك إلى هاويتها السحيقة

لم... لم.. كتمت عني صداقتكما الافتراضية

لم جعلتني أقرؤك أمانا، فإذ بك تخونين ثقتي، وترحلين إلى حيث لا يحق لي اللحاق بك..

جاءني السافل ابن سيادته حتى المدرسة العليا.. يا لسخرية الأقدار جاء يبحث عني تصوري.

ما بالنا مني.. طرقنا بابا ليس لنا فما فتح إلا ليمطر القلوب جمرا

السيد "س"دعاني لفنجان قهوة. جالسته إكراما للمسافة التي قطع دون مقدمات سحب المفكرة التي كنت اقتنيت لذرية

ماذا حركت مني رؤيتها.. لا تسألي.. لم تحرك غير احتقاره

سحبتها نحوي.. لم أتلفظ بكلمة شكر لمجهوداته

الدناءة كانت تغلفه، لم أسطع التغاضي عنها للتواصل معه. كاد يصيبني الغثيان، فتشاغلت بفتحها، ليصعقني بصورة لشاب أعرفه جيدا

أرفع رأسي ليقرأ السؤال على تقاسيمي الفزعة، لم أنجح في كتمان دهشتي

- أتعرف من هو

- من هو

- هو الرجل الذي كان يطاردهما حتى ألقى بهما للموت حرقا

ضحكت، حتى علا صوتي، كنت قد وقعت بشركه دون أن أدري، صرت أشبه غباءكما البريء

- من هو.. أنت تعرفه جيدا

- هل تحقق بالحادث

- التحقيق أغلق كما أغلق سابقه، لابد خبرتك المرحومة بكل التفاصيل

- إذن..

قال أنكما ألقيتما بالمفكرة والهاتف خارج السيارة قبل أن تلقيا مصيركما..

على من كنتما تعتمدان، على والدها الذي جرده هذا النذل من كل الميراث بحجة أنها باعته كل ممتلكاتها، أم كنتما تأملان أن يسوق هذا الحقير العدالة لروحيكما الطاهرتين..

غبيتان.. قد أكون الغبي الوحيد هنا إذ أصدقه، أتأمل الصورة مجددا، ألتفت إلى كتلة الدناءة التي مازالت تجالسني مثرثرة دون توقف

- لا أعرف من هو.. ثم التحقيق أغلق ما الفائدة

- أريد أن أعرف من قتلها

- لتنتقم.. هل يهتم مثلك بالانتقام

- المفكرة مقابل هويته

أضحك ثانية من منطقه الغريب، هذه المفكرة أنا اقتنيتها ولو أردتها لما بلغت يديك الدنستين، يقترح علي تصفحها لأعرف قيمة الصفقة

كنت هنا ذرية، بكل تفاصيلك

كنت تكتبين أيضا
غريبة أنت بجمالك الفريد، جميلة أكثر مما يجب أنت..
كان لابد أن تستأثر بك السماء
- هو الفتى الذي كانت تخال نفسها قتلته في الحادث الأول
يحمل كلمتي.. وأتنفس يقينا بأن ميتتكما كميتة هذا الفتى الـــذي كان رمادا
ثم ها هو منتصب الانتقام
على المفكرة.. قبل أن يرحل أكتب

الإهداء

إليكما
شهيدتا الجهل المطبق
كل من يشرع يكشف الحجب
يرحل جبرا للسماء أو للخفاء

تم الجزء الأول

8.11.2011

أهداب الخشية
عزفاً على أشواق افتراضية

منى بشلم

▪ كاتبة من الجزائر

صدر أيضاً للمؤلفة:

مساؤك سعيد يا أنتَ

غدا بحول الله أسافر للعاصمة، سألقاها.. لم تكشف هويتها بعد لكني أحس أنها هي.. وبعد لقائها سأكتب قصتك، وقصتها، سأحاول سماع الحكاية منها وسأكتبكما إلى جوار بعض، ملتحمان دون تماس كأهداب العين.. متجاورة بامتداد طولي، كل رمش مستقل عن الآخر، مع ذلك قد تتلامس دون أن تختلط، وفي التشابك جمالها، وأعلق كل هدب بحرف من الأبجدية؛ إذ تجمع الحروف تتكشف لك العين وصاحبها، وحين ترفع بالقراءة الأهداب واحدا بعد الآخر تكتشف الرؤيا، لتعرف ماذا كانت ترى كل عين وما كان يرى كل راءٍ..

لتنبني مدينتي الروائية مشابهة لمدينتنا الحلم «قسمطينة» بأقواسها المتتالية تقف فتتراءى لك من وراء القوس الأول أقواس ملتحمة دون تماس.

فكر بهندستي أجبني بعد عودتي بإذن الله.

مكتبة نوميديا

ISBN: 978-614-01-0934-6

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com